

رسالة لب اللباب في سير و سلوك أولي الألباب

محمد حسين حسيني طهراني



هو العزيز

دورة العلوم والمعارف الإسلامية

٤



في سير وسلوك أولي الألباب

تأليف سماحة العلّامة الراحل

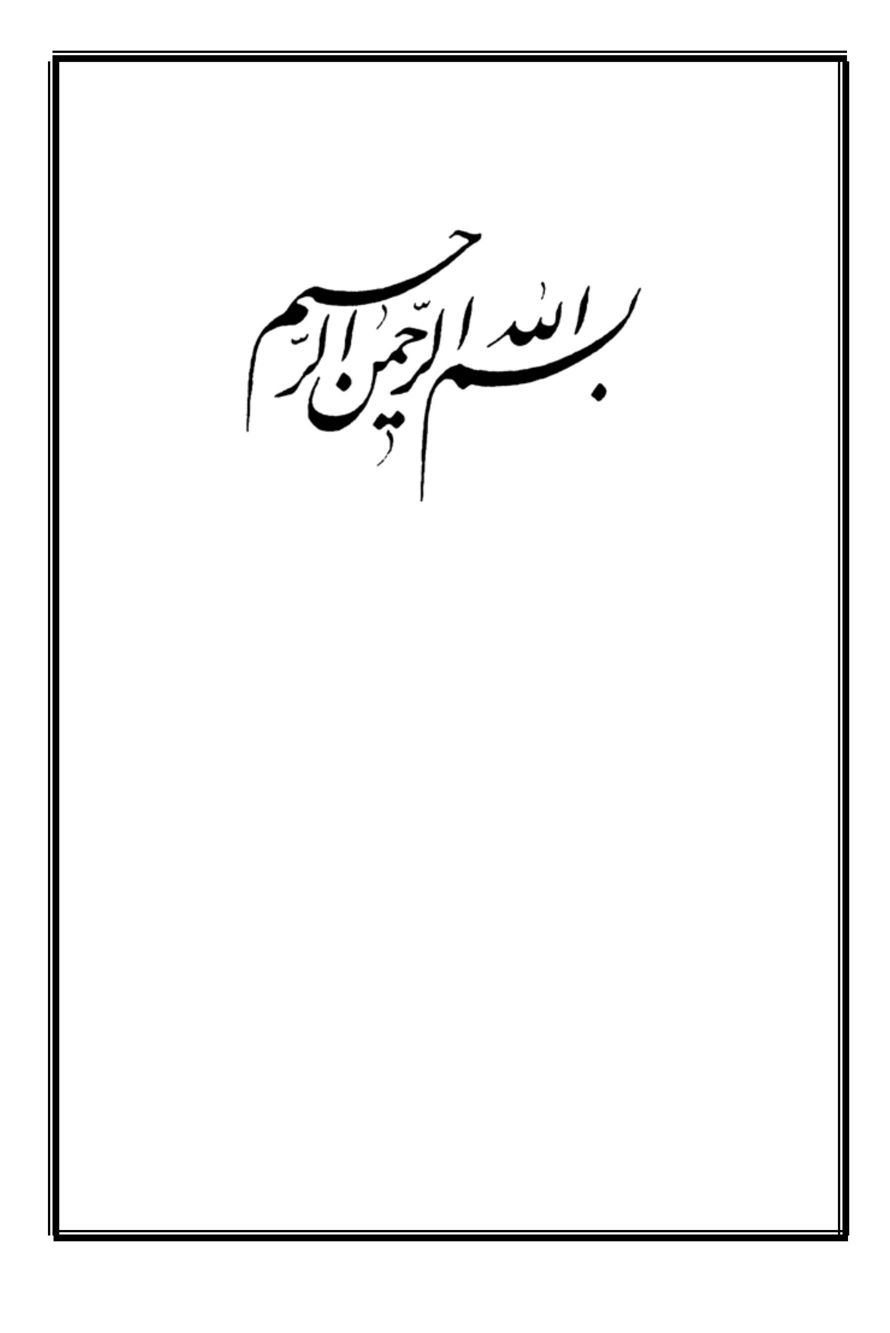
آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني

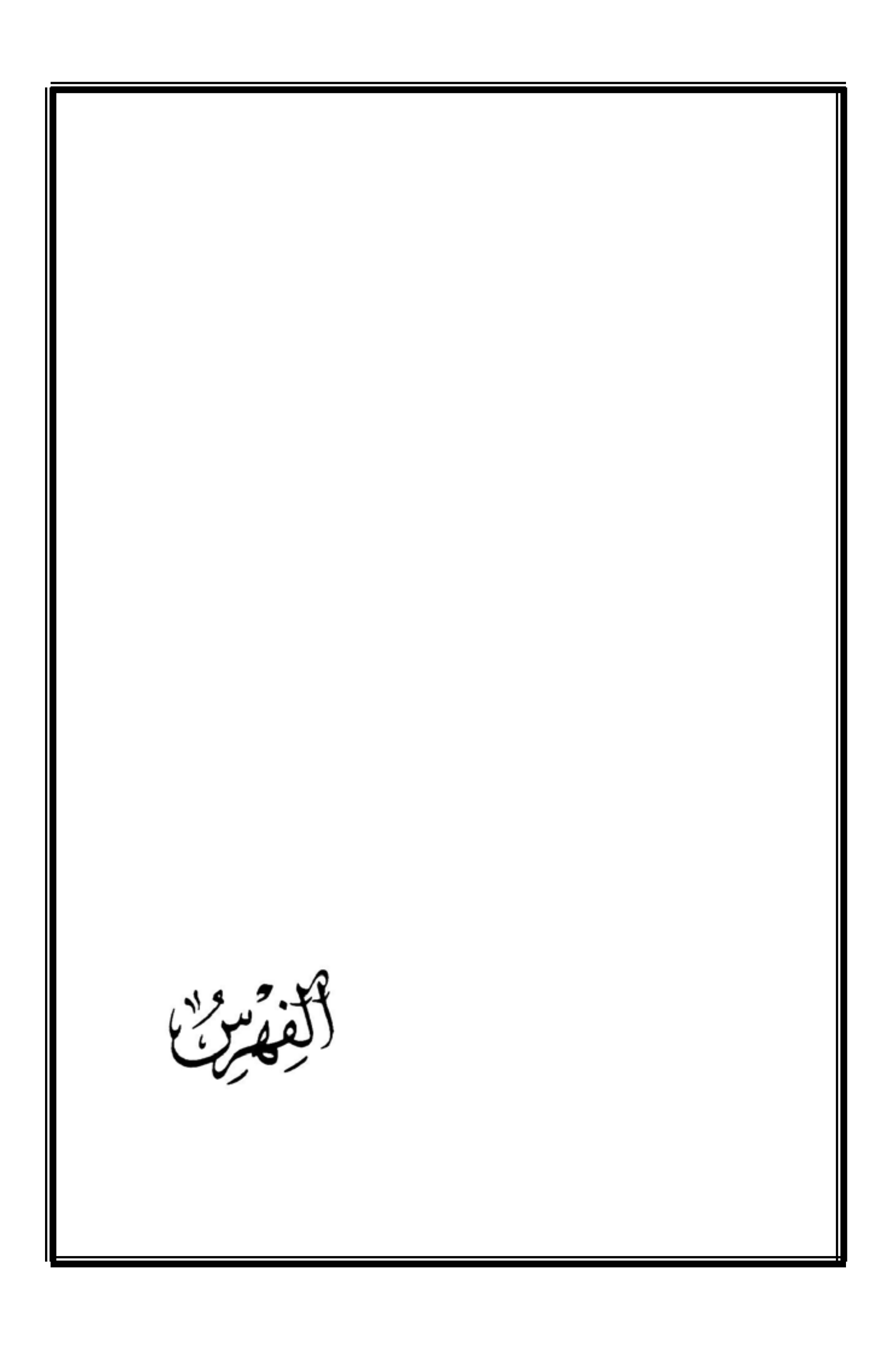
أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسيّة

تعريب

السيّد عبّاس نور الدين

دار المحجّة البيضاء


بسم الله الرحمن الرحيم


الفهرس

فهرس مطالب و موضوعات
رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب

المعرفة الإجماليّة والبرنامج الكلّيّ للسلوك إلى الله

الصفحة ١٧ إلى الصفحة ٥٢

يشمل المطالب التالية :

رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب

المطالب	الصفحات

شرح تفصيليّ للعوالم المتقدّمة على عالم الخلوص

الصفحة ٥٥ إلى الصفحة ٧٩

يشمل المطالب التالية :

فهرس المطالب و الموضوعات

الشرح الإجماليّ للطريق وكيفيّة السلوك إلى الله

الصفحة ٨٣ إلى الصفحة ٩٥

يشمل المطالب التالية :

الشرح التفصيليّ للطريق وكيفيّة السلوك إلى الله

الصفحة ٩٩ إلى الصفحة ١٥٣

يشمل المطالب التالية :

رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب

مُقدمة المؤلف

بِسْـمِ اللَهِ الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ

والصلاة والسلام عـلى خـاتم النـبيّين مـحمّد المـصطفى ، ووصيّه المنتجب صاحب الولاية الكبرى عليّ المرتضى ، وأبنائه الأئمّة الطاهرين ، سيّما بقيّة الله في الأرض والسماء الحـجّة بـن الحسن العسكريّ ، أرواحنا لتراب مقدمه الفداء .

إنَّ حسّ الانجذاب نحو الدين ورغبة الاندفاع نحو عـوالم الغيب وكشف أسرار ما وراء الطبيعة يعتبر جزءاً من الغرائز الطبيعيّة للبشر ، ويمكن عدّ هذه الغريزة نـاشئة عـن جـاذبة حـضرة الربّ الودود الذي يجذب عالم الإمكان وبالأخصّ الإنسان الأشرف إلى مقامه المطلق اللامتناهي . ومغناطيس الروح هو روح الروح الذي يعبّرون عنه بالأرواح وحقيقة الحقائق ، والأصل القـديم ، ومـنبع الجمال ، ومبدأ الوجود وغاية الكمال .

الكُـــلُّ عِــبَارةٌ وأَنتَ المَــعْنَى

يَا مَنْ هُـوَ للـقُلُوبِ مِـغْنَاطِيسُ [1]

هذه الجـذبة المـغناطيسيّة الحـقيقيّة التـي تكـون نـتيجتها وأثرها تحطيم قيود الطبيعة ، والحدود الأنفسيّة ، والاتّجاه نحو عالم التجرّد والإطلاق ، وأخيراً الفناء في الفعل والاسم والصفة والذات المقدّسة لمبدأ المبادئ وغـاية الغـايات ، وبـقاء المـوجود بـبقاء المعبود ، هذه الجذبة هي أعلى وأرقى من كلّ عمل يمكن تصوّره .

جَذْبَةٌ مِنْ جَذَبَاتِ الرَّحْمَنِ تُوازِي عِبَادَةَ الثَّقَلَيْنِ . [2]

فالإنسان من أعماق ذاته وفطرته يدرك تحرّكه نحو كـعبة المقصود وقبلة المعبود ، ويسـافر بـقوّة الغـريزة والفـطرة الإلهـيّة ويتّجه بكلّ وجوده نحو هذا الهدف ، ولذا فـعلى جـميع أعـضائه وجوارحه أن تشترك معاً في هذا السفر .

فعالم الجسم والمادّة الذي هو طبعه ، وعالم الذهن والمثال الذي هو برزخه ، وعالم العقل والنفس الذي هو حقيقته ، كلّ هذه

١ـ «منظومة السبزواريّ» الإلهيات ، في أفـعاله تـعالى ، غـرر فـي أنـحاء تقسيمات لفعل الله تعالى ، ص ١٨٣ ، طبعة ناصري .

٢ـ «بحر المعارف» ص ٣٩٣ ، الطبعة الحروفيّة ؛ و «المكاتيب» لعبدالله قطب، ص ١٠٠٣ .

الأُمور ، يجب أن تكون حاضرة في هذا السفر وتشارك فيه .

يجب أن تكون وجهة البدن عند الصلاة نحو الكعبة في الركوع والسجود وسائر الأفعال ، والذهن مصوناً من الخواطر ومتّجهاً نحو سدرة المنتهى ،والروح مستغرقة في أنوار حريم الحرم الإلهيّ ، تذوب وتنصهر داخل حرم الحضرة الأحديّة الآمنة .

ومن هنا يتبيّن أنَّ هؤلاء الذين اهتمّوا بالظاهر ، واكتفوا من العبادات والأعمال الحسنة بالأفعال الشكليّة ، واقتنعوا بالقشور بدلاً من اللُّبّ والجوهر ، كم هم بعيدون ـ كلّ البعد ـ عن كعبة المقصود وكم هم محرومون من جماله ولقائه .

وكذلك الذين ارتكز جهدهم على المعاني تاركين الأعمال الحسنة والعبادات الشرعيّة بعيدون عن متن الواقع ، وقد اقتنعوا بالمجاز والوهم بدلاً من الحقيقة .

أوَ ليس نور الله سارياً في تمام مظاهر عوالم الإمكان وجارٍ فيها ؟! فلماذا إذَن نعفي البدن من العبادة ونعطّل هذا العالم الجزئيّ من تجلّي الأنوار الإلهيّة ، ونكتفي بألفاظ الوصول واللّبّ والقلب والعبادة القلبيّة ؟ أليست هذه عبادة من جانب واحد ؟

أَمَّا النَّمَطُ الأَوْسَطُ والأُمَّةُ الوَسَط ، فهم أُولئك الذين جمعوا بين الظاهر والباطن ، وحملوا جميع درجات ومراتب وجودهم

على العبادة والانقياد لحضرة المحبوب ، وتجهّزوا لهذا السفر الملكوتيّ .

فجعلوا الظاهر عنواناً للباطن ، والباطن روحاً وحقيقة للظاهر ومزجوا كليهما معاً كما يمتزج الحليب والسكّر ، فمرادهم من الظاهر الوصول إلى الباطن وقد عدّوا الباطن بدون الظاهر هباءً منثوراً .

اللَهُمَّ نَوِّرْ ظَاهِرِي بِطَاعَتِكَ ، وَبَاطِنِي بِمَحَبَّتِكَ ، وَقَلْبِي بِمَعْرِفَتِكَ ، وَرُوحِي بِمُشَاهَدَتِكَ ، وَسِرِّي بِاسْتِقْلَالِ اتِّصَالِ حَضْرَتِكَ ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالإكْرَامِ .[1]

ومن هنا يتّضح أنَّ الاقتصار على العلوم الإلهيّة والذهنيّة والفكريّة ، كتعلّم الفلسفة وتعليمها من أجل تكامل النفس وطيّ مدارج ومعارج الكمال الإنسانيّ لن يكون كافياً بأيّ وجه من الوجوه . فترتيب القياس والبرهان على أساس المنطق الصحيح والمقدّمات السليمة يُعطي الذهن نتيجة مقنعة ، ولكنّه لا يُشبع

١ـ من جملة فقرات الدعاء المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام الذي شرحه الحاجّ المولى جعفر كبوتر الآهنگيّ وطبعه في كرّاس صغير؛ وقد ذكره المحقّق الكاشانيّ في «كلمات مكنونة» ص ٦١ ، الطبعة الحجريّة ، بهذه العبارة: وقد ورد في أدعيتهم عليهم السلام .

الروح والقلب ، ولا يُروي النفس من عطش الوصول إلى الحقائق وشهود دقائق السير .

فالفلسفة والحكمة وإن كانت تـتمتّع بـالأصالة والمـتانة ، وتقوم على إثـبات أشـرف العـلوم الذهـنيّة والفكـريّة ـ ألَا وهـو التوحيد ـ عـلى أسـاس البـرهان ، وتسـدّ الطـريق أمـام الشكـوك والشـبهات ، وعـلى هـذا الأسـاس كـذلك أمـر القـرآن الكـريم والراسخون فـي العـلم عـليهم الصـلاة والسـلام بـالتعقّل والتـفكّر وترتيب القياس والبرهان والمقدّمات الاستدلاليّة ،ولكنّ الاكتفاء بالتوحيد الفلسفيّ والبرهان في مدرسة الاستدلال هو دون انـقياد القلب ووجدان الضمير وشهود الباطن هو أمر ناقص .

فتجويع القلب والباطن من الأغذية الروحيّة والمعنويّة لعالم الغيب والأنوار الملكوتيّة الجماليّة والجلاليّة ، والاكتفاء بالسير في بواطن الكتب والمكتبات والدرس والتدريس ، وحتّى إذا بلغ أعلى درجاته ليس إلّا إشباع لعضوٍ من الأعـضاء وتـجويع لعـضوٍ أعـلى وأرفع .

فالدين القويم والصراط المستقيم يُـراعـي كـلا الجـانبين ، ويُكمل القوى والقابليّات الكامنة في الإنسان في الحالين .

فهو ـ من جانب ـ يحثّ ويُرَغِّبُ بالتعقّل والتـفكّر ، ومـن

جانب آخر يأمر بالإخلاص وتطهير القلب من صدأ الرواسب الشهوانيّة ، وتهدئة القلب وطمأنة وتسكين الخاطر . فبعد أحد عشر قَسَماً عظيماً وجليلاً يقول تعالى : **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا** [1] .

انظر إلى هذه الآيات القرآنيّة الكريمة التي تخاطب روح الإنسان ، وتتكلّم مع باطنه ، كيف تدعو المفكّرين والمدرّسين وأساتذة الفلسفة والاستدلال إلى التعبّد والمراقبة ومحاسبة النفس للإخلاص في العمل من أجل رضا الله ، كما جاء على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله : **مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحَاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ إِلَى لِسَانِهِ** [2] ، فينابيع المعارف

١ـ الآيتان ٩ و ١٠ ، من السورة ٩١ : الشمس .

٢ـ روي هذا الحديث بطرق عديدة عن رسول الله ، بعبارات مختلفة ذات مضمون واحد؛ وذكر في «إحياء العلوم» ج ٤ ، ص ٣٢٢ ، وتعليقته في ص ١٩١ ؛ وفي «عوارف المعارف» المطبوع في حاشية «إحياء العلوم»، ج ٢ ص ٢٥٦ .

وقد ورد في كتب الشيعة ، منها : «عيون أخبار الرضا» ص ٢٥٨ ؛ «عدّة الداعي» ص ١٧٠ ؛ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ١٦ . والرواية الواردة في «العيون» بإسناده عن الإمام الرضا عليه السلام ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن الإمام محمّد بن عليّ الباقر ، عن أبيه الإمام السجّاد ، عن جابر بن عبد الله الأنصاريّ ، عن ⇦

الإلهيّة من قلوبهم متفجّرة ، وعلى ألسنتهم سارية ، وقد انبعث السيل الجارف من الأفكار والإلهامات والواردات الرحمانيّة من عمق وجودهم . وقد حصل مثل هذا الانجذاب نحو العبوديّة والعبادة وتطهير الباطن والتزكية لفخر فلاسفة الشرق بل فلاسفة العالم ، صدر المتألّهين الشيرازيّ بعد قضاء عمره في الحكمة المتعالية إلى درجة أنّه كتب بقلمه :

«وإنِّي لأَستَغفِرُ اللهَ كَثيراً ممَّا ضَيَّعتُ شَطْراً من عُمري في تَتَبُّعِ آراءِ المُتَفَلسِفةِ والمُجادِلينَ من أَهلِ الكلامِ وتدقيقاتِهِم وتَعَلُّمِ جُرْبُزَتِهِم في القولِ وتفنُّنِهِم في البحثِ حتَّى تَبَيَّنَ لي آخِرَ الأَمرِ بنورِ الإيمانِ وتأييدِ اللهِ المنَّانِ أَنَّ قياسَهُم عقيمٌ وصراطَهُمْ غيرُ مستقيم ؛ فأَلْقَينا زِمامَ أَمرِنا إليهِ وإلى رسولِهِ النَّذيرِ ، فكلُّ ما بَلَغَنا منهُ آمَنَّا بهِ وصَدَّقناهُ ولم نَحْتَلْ أَنْ نُخَيِّلَ لهُ وجْهاً عقليّاً ومسلكاً بحثيّاً ، بلِ اقْتَدَينا بِهُداهُ وانْتَهَينا بِنَهْيِهِ امْتِثالاً لقولِهِ تعالى : **مَا ءَاتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا** ، حتَّى فتحَ اللهُ على قلبِنا ما فَتَحَ فأَفْلَحَ ببركةِ متابعتهِ وأَنجَحَ[1] .

⇦ أمير المؤمنين عليه السلام هي : **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ : مَا أَخْلَصَ عَبْدٌ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحَاً إلَّا جَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ عَلَى لَسَانِهِ.**

١ـ انظر : مقدمة «الأسفار الأربعة» للملّا صدرا .

ويجب أن نذكر **آية الحقّ المولى حسين قلي الهمدانيّ** أفضل وأعلى فقيه صمدانيّ وحكيم إلهيّ وعارف ربّانيّ في بداية القرن الماضي .

هذا الفقيه الكبير والمفكّر الجليل والفيلسوف البارز القدير الذي حصّل جميع هذه العلوم الحقّة في ظلّ علم العرفان وتهذيب النفس ، وأدغمها جميعاً في أنوار الوجه الإلهيّ ، وعيّن مرتبة كلّ علم في مكانه وموقعه ، وجعل المقصود الأسمى هو الوصول إلى حرم الله الآمن ، هذا العارف قد ربّى تلامذة ، وقدّمهم إلى مدرسة العرفان ، فكان كلّ واحد منهم نجماً في سماء الفضيلة والتوحيد ، فأضاؤوا عالَماً وسطعوا في سمائه على مدّ شعاع البصر والبصيرة . ومن جملتهم العارف الربّانيّ **السيّد أحمد الطهرانيّ الكربلائيّ** ، وتلميذه فخر الفقهاء وجمال العرفاء الحاجّ الميرزا **علي القاضي** أعلى الله مقامهما الشريف .

ثمّ إنَّ أُستاذنا فخر المفسّرين وسند المحقّقين **العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ** مدّ الله ظلاله الوارفة ، مع أنّه قد سار في بداية حياته بجناحي العلم والعمل ، وطوى الطريق في مدرستي الفلسفة والعرفان عند المرحوم القاضي ، وأفنى عمره في القياس والبرهان والخطابة وتقوية العلوم الفكريّة من «الإشارات»

و «الأسفار» و «الشفاء» وحواشيها ، مع الاشتغال الكامل بالخلوات الباطنيّة والأسرار الإلهيّة والمراقبات العرفانيّة ، قد استقرّت راحلته أخيراً على عتبة القرآن المقدّس ، فانتهل من فيض الآيات القرآنيّة إلى درجة أصبح البحث والتفكير والقراءة والتمعّن والتفسير وتحليل وتأويل الآيات القرآنيّة عنده أعلى من كلّ ذكر وفكر ، والتدبّر فيها ألذّ من كلّ قياس وبرهان ، وكأنّه لا يملك شيئاً سوى التعبّد المحض لمقام صاحب الشريعة الغرّاء وأوصيائه المكرّمين .

وهذا صديقي المكرّم وسيّدي المعزّز الأشفق من الأخ المرحوم **آية الله الشيخ مرتضى المطهّريّ** رضوان الله عليه الذي تمتدّ معرفتي به إلى أكثر من خمس وثلاثين سنة قد اكتشف بعد سنوات من البحث والدرس والتدريس والكتابة والخطابة والموعظة والتحقيق والتدقيق في الأُمور الفلسفيّة بذهنه الوقّاد ونفسه النقّادة أنَّ الإنسان لا يمكنه أن يُحصِّل اطمئنان الخاطر وتهدئة السرّ دون الاتّصال بالباطن والارتباط بالله المنّان وإرواء القلب من منبع الفيوضات الربّانيّة ، وبدونه لا يمكنه أبداً أن يدخل حرم الله المطهّر أو يطوف حوله ويصل إلى كعبة المقصود .

فتقدّم إلى هذا الميدان كالشمعة المحترقة الذائبة ، والفراشة الهائمة حول السراج ، كمؤمن رساليّ عاشق ولهان قد فُني في البحر

اللامتناهي لذات المعبود وصفاته وأسمائه ، فاتّسع وجوده بسعة وجود الله تعالى .

فقيام الليالي الحالكة والبكاء والمناجاة في خلوة الأسحار ، والتوغّل في الذكر والفكر والممارسة في دراسة القرآن والابتعاد عن أهل الدنيا والاتّصال بأهل الله وأوليائه ، كلّ هذا كان مشهوداً في سيره وسلوكه رحمة الله الواسعة عليه .

لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ[1] ؛ **إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّـذِينَ ٱتَّـقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**[2] .

وقد طُلب قبل مدّة من هذا الحقير أن يكتب شيئاً في ذكرى شهادته ، وأنا الفقير الذي أرى نفسي غير لائق حقّاً ، لذلك اعتذرت أوّل الأمر لكثرة المشاغل وتراكم الأعمال .

وأخيراً بعد المراجعة المتكرّرة أعطتني روح هذا الصديق العزيز الغالي مدداً لأُحرِّر هذا المختصر بعنوان مقدّمة لرسالة كتبتها في السير والسلوك ، وأهديتها لروح المرحوم ، وجعلتها في متناول أيدي طالبي الحقّ وسالكي سبل السلام وطريق الحقيقة . **بِيَدِهِ أَزِمَّةُ الأُمُورِ وَبِهِ أَسْتَعِينُ** .

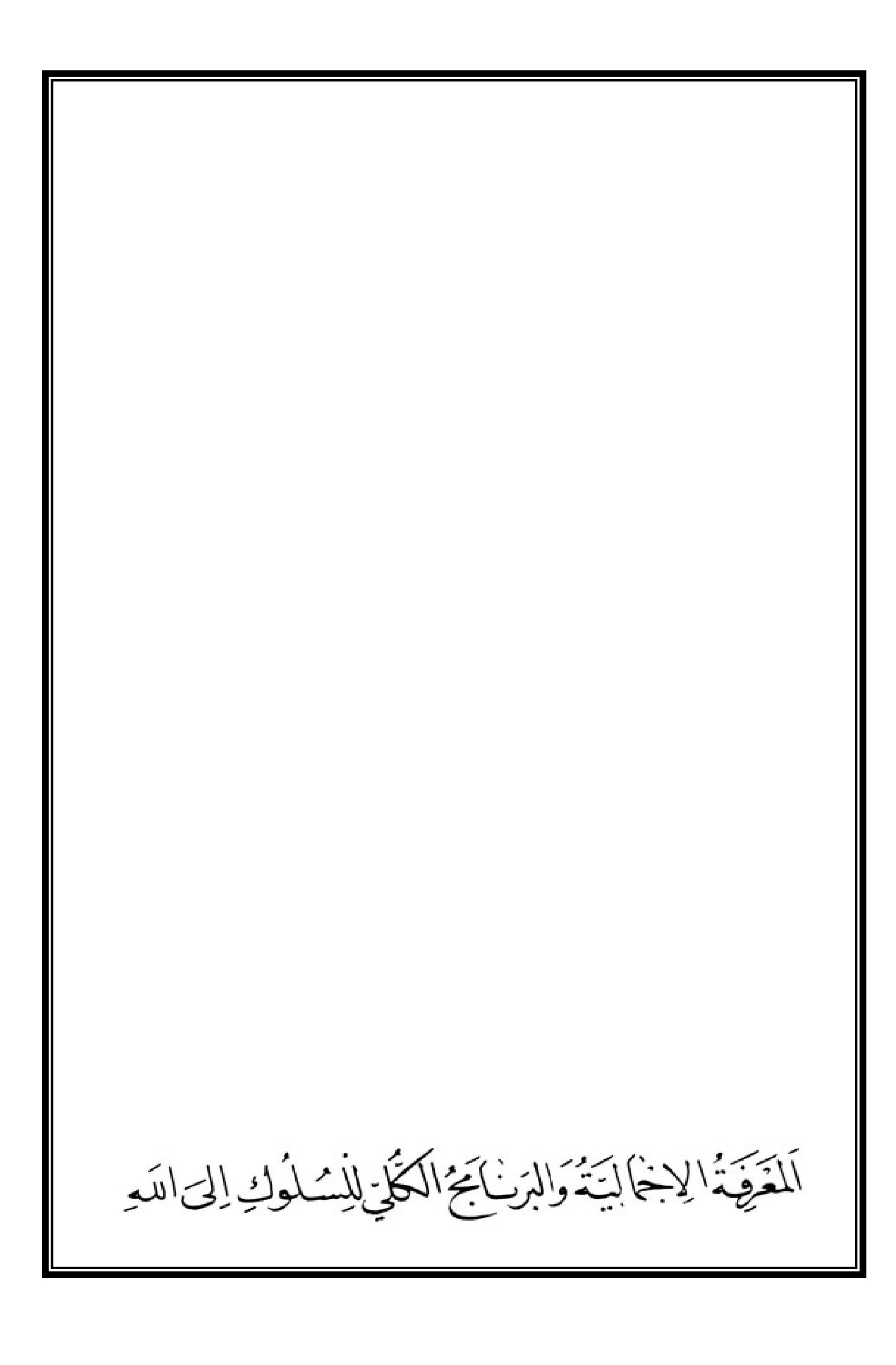
١ـ الآية ٦١ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ الآية ١٢٨ ، من السورة ١٦ : النحل .

وأصــل هــذه الرسـالة أُسّ ومـخّ أوّل دورة مـن الدروس الأخلاقيّة والعرفانيّة التي ألقاها أُستاذنا المعظّم العلّامة الطباطبائيّ روحي فداه في سنتي ألف وثلاثمائة وثمان وستّين ، وتسع وستّين هجريّة قمريّة في حوزة قم المقدّسة على بعض الطـلبة فـحرّرتها كتقريرات لدروسه ، وكنت أعتبر أنَّ قراءتها والمرور عـليها فـي أوقات الشدّة والكدورة والتعب مـوجب لتـنوير الروح وتـلطيف النفس .

فهذه دورة مررت عـليها بـالتنقيحات والإضـافات أهـدي ثوابها إلى روح الفقيد السعيد المطهّريّ أعلى الله مقامه الشريف .

اللَهُمَّ احْشُرْهُ مَعَ أَوْلِيَائِكَ المُقَرَّبِينَ ، وَاخْلُفْ عَلَى عَقِبِهِ فِي الغَابِرِينَ وَاجْعَلْهُ مِنْ رُفَقَاءِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَارْحَمْهُ وَإِيَّانَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .


المعرفة الإجمالية والبرنامج الكلي للسلوك إلى الله

بِسْمِ اللَهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم
وَصَلَّى اللَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ
وَلَعْنَةُ اللَهِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ

وبعدُ ؛ قالَ اللّهُ العَليُّ العَظِيمُ : **سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْأَفَـاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ .**[1]

چه مبارک سحری بود و چه فرخنده شبی
آن شب قدر که این تازه براتم دادند[2]

١ـ الآيتان ٥٣ و ٥٤ ، من السورة ٤١ : فصّلت .

٢ـ «ديوان حافظ» غزل ١٧٨ ، ص ١٧٨ ، طبعة پژمان .

يقول : «هي مباركة كانت ليلة القدر التي تسلّمت فيها وثيقة حرّيّتي».

بــی خــود از شـعشعهٔ پـرتو ذاتـم کـردند
بـــاده از جـــام تــجلّیّ صــفاتم دادنــد[1]

يعيش الإنسان الماديّ في صحراء الماديّة المظلمة غـارقاً في بحر الشهوات والكثرات اللامتناهية ، ووسـط أمـواج العـلائق الماديّة التي تتقاذفه من كلّ جانب وفي كلّ آن ، فما أن يفيق من لطمات الأمواج وصدماتها حتّى تأتي أمواجٌ أعتى وقد نبعت مـن التعلّق بالمال والثروة والنساء والأولاد ، فتصفعه الأمواج على وجهه صفعات متوالية حتّى يغوص في قـعرها ، ويـغرق فـي ذلك اليَـمّ العميق المهول بحيث لن تسـمع بـعد ذلك اسـتغاثاته وصـرخـاته للنجدة .

لا يلتفت إلى جهة إلّا وجد الحرمان والحسرة اللتين هما من الآثـار واللـوازم التـي لا تـفارق المـادّة القـابلة للـفساد تـهدّدانـه وترعبانه .

وفي هذا الخضم قد يلاطفه نسيم عليل باسم الجذبة ، ويجد وكأنَّ هذا النسيم العطوف الودود يسحبه جانباً ويسوقه إلى مقصد ما ، إلّا أنَّ هذا النسيم لا يدوم هبوبه ، فهو يهبّ من حين إلى آخر .

١ـ يقول : «وقد أذهلني شعاع ضوء اللـه الذي فـتق صـفاتي مـن خـمرة التجلّي».

وَإنَّ لِرَبِّكُمْ فِـي أَيَّـامِ دَهْـرِكُمْ نَـفَحَاتٍ أَلَا فَـتَعَرَّضُوا لَـهَا وَلَا تُعْرِضُوا عَنْهَا .[1]

في هذه الحال يهمّ السالك بالسفر إلى اللـه ، ويـقرّر تـبعاً لتأثير هذه الجذبة الإلهيّة أن يعبر عالم الكثرة ، ويشدّ بكلّ ما يمكنه عنان السـفر ليـخلّص نـفسه مـن هـذه الغـوغائيّة المـليئة بـالآلام والاضطرابات . ويُسمّى هذا السفر في اصطلاح العارفين وعرفهم بـ**السير والسلوك** .

فـالسلوك هـو طـيّ الطـريق ، والسـير هـو مشـاهدة آثـار وخصائص المنازل والمراحل أثناء ذلك الطريق .

وزادُ هذا السفر الروحانيّ هو المجاهدة والرياضة النفسانيّة ولأنَّ قطع علائق المادّة صعب جدّاً ، يتمّ التخلّص من وشائج عالم الكثرة بالتدريج حتّى يتمّ السفر من عالم الطبع .

ولا ينفض السالك عن نفسه غبار الطريق حتّى يدخل عالم البرزخ الذي هو الكثرة النفسيّة ، فيشاهد هنا بوضوح كم أودعت المادّة والكثرات الخارجيّة من ذخائر داخل بيت طبعه ، وهي تلك الموجودات الخياليّة النفسانيّة التي نشأت من التعامل والاحتكاك

١ـ «بـحار الأنـوار» ج ٧٧ ، ص ١٦٨ ؛ و«الجـامع الصـغير» للسـيوطيّ ، ص ٣٦٧ .

بـالكثرات الخـارجـيّة ، وصـارت جـزءاً مـن آثـارها وثـمارها ومواليدها .

وهذه الخيالات تقف مانعاً وعائقاً من سفره ،وسبباً لافتقاده للهدوء والسكينة ، فلا يختلي السالك بنفسه مناجياً الله تعالى إلّا وهجمت عليه فجأة كالسيل الهادر قاصدة إهلاكه .

جان هـمه روز از لگـد كـوب خـيال
و ز زيـــان و ســود و از بــيم زوال
نى صفا مـىماندش نـى لطـف وفـرّ
نـى بـه سـوى آسـمان راه سـفر[1]

وبديهيّ أنَّ الصدمة والعذاب الناشئين من الكثرات النفسيّة أقوى منهما في الكثرات الخارجيّة ، فكم من استطاع بإرادتـه أن يبتعد عن مقابلة الكثرات الخارجيّة بالعزلة ، ولكنّه بهذه الوسـيلة لم يتمكن من أن يتخلّص من عذاب وصدمة الخيالات النـفسيّة ، لأنـّها قرينته ومجاورة له على الدوام .

١ـ «مثنوي» ص ١٢ ، طبعة مير خاني .

يقول : «إنَّ الروح لتفقد صفاءها وبهاءها ولا يغدو بإمكانها العروج نـحو الأعالي إذا انساقت مع الهوى وانصاعت لما يضرّها وما ينفعها وخشيت الاندكار ولم تؤمن البقاء المطلق» .

إنَّ المسافر في طريق الله والخلوص والعبوديّة الحقّة لا يخاف من هؤلاء الأعداء ؛ فهو يشمّر ساعد الهمّة مستعيناً بتلك النغمة القدسيّة ليتقدّم نحو المقصد ويخرج من عالم الخيالات المسمّى بـ «البرزخ» . ويجب أن يكون السالك حذراً جدّاً ومتيقّظاً حتّى لا يبقى شيء من هذه الخيالات في زوايا بيت القلب ، لأنَّ دأب هذه الموجودات الخياليّة أن تخبّئ نفسها عندما يُراد إخراجها في زاوية مظلمة من زوايا القلب بحيث يظنّ السالك المنخدع أنّه قد تخلّص من شرّها ، ولم يبقَ فيه شيء من بقايا عالم البرزخ ، ولكن ما أن يجد المسافر طريقه إلى نبع الحياة يريد أن يرتوي من عيون الحكمة حتّى تنصبّ عليه فجأة ، شاهرة سيف القهر والجفاء فتقضي عليه .

مَثَلُ هذا السالك مَثَلُ من يصبّ الماء في حوض بيته ، ويتركه مدّة لا يلمسه حتّى تترسّب كلّ الأوساخ فيظهر الماء في الحوض صافياً فيظنّ أنَّ هذا الصفاء وهذه الطهارة الحاصلة دائمة ، ولكن بمجرّد إرادته الغوص أو تطهير شيء بالحوض تعود تلك الأوساخ لتلوّث هذا الماء الصافي وتظهر على سطحه بشكل قطع سوداء . فينبغي للسالك أن يستمرّ بالمجاهدة والرياضة إلى أن يحصل على هدوء البال واستقرار الخاطر حتّى تترسّب آثار الخيال

في ذهنه وتتحجّر ولا تستطيع أن تقوم مجدّداً لتشوّش ذهنه حين التوجّه إلى المعبود .

وحينما يعبر السالك من عالم الطبع والبرزخ إلى عالم الروح يطوي عدّة مراحل سوف نتحدّث عنها إن شاء الله تعالى بالتفصيل .

وإجمالاً ، فإنَّ السالك بعد أن يوفّق لمشاهدة نفسه والصفات والأسماء الإلهيّة شيئاً فشيئاً يصل إلى مرحلة الفناء الكلّيّ ، ثمّ يصل بعدها إلى مقام البقاء للمعبود ، وعندها تثبت له الحياة الأبديّة .

هرگز نميرد آنكه دلش زنده شد به عشق

ثبت است در جريدهٔ عالم دوام ما[1]

وبالتأمّل والتدبّر في الآيات القرآنيّة الكريمة يُصبح هذا الأصل أمراً مسلّماً ، وحاصله أنَّ الله تعالى يقول في إحدى آياته الكريمة :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ

١ـ «ديوان حافظ» غزل ١٢ ، ص ١٢ ، طبعة پژمان .

يقول : «لا يموت أبداً من عمّرت قلبه المحبّة ، فقد كُتب لنا الخلود في صحيفة الكون» .

عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.[1]

ويقول في مكان آخر :

كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ.[2]

وأيضاً :

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَهِ بَاقٍ.[3]

بضمّ هذه الآيات بعضها إلى بعض ، يتّضح أنَّ أُولئك الأحياء والمرزوقون هم عبارة عن وجه الله الذي ـ بنصّ الآية الكريمة ـ لا يعرف الفناء والزوال .

ومن جانب آخر يُعلم من الآيات القرآنيّة الأُخرى أنَّ المراد من وجه الله تعالى والذي لا يقبل الزوال هو تلك الأسماء الإلهيّة .

وبيان ذلك : أنّه قد فسّر في آية أُخرى وجه الله الذي لا يزول ولا يفنى بأسمائه تعالى التي تترتّب عليها صفات العزّة والجلال :

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ[4].

١ـ الآية ١٦٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآية ٨٨ ، من السورة ٢٨ : القصص .

٣ـ الآية ٩٦ ، من السورة ١٦ : النحل .

٤ـ الآيتان ٢٦ و ٢٧ ، من السورة ٥٥ : الرحمن .

فقد اتّفق المفسّرون على أنَّ كلمة «ذو» صفة لـ «وجه» أي أنَّ وجه ربّك الذي هو وجه الجلال والإكرام باقٍ ، وكما نعلم فإنَّ وجه كلّ شيء هو ما تحصل المواجهة به ، فوجه أيّ شيء مظهر له ، والمظاهر هي تلك الأسماء الإلهيّة التي يواجه الله مخلوقاته بها والنتيجة أنَّ كلّ الموجودات قابلة للزوال والفناء إلاّ الأسماء الجلاليّة والجماليّة ، وهكذا يُعلَم أنَّ السالكين إلى الله الذين وصلوا إلى فيض سعادة **بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** هم عبارة عن الأسماء الجلاليّة لحضرة الربّ جلّ وعزّ .

ويُعلم أيضاً بوضوح مراد الأئمّة الأطهار عليهم السلام من قولهم : **نَحْنُ أَسْمَاءُ اللَهِ**[1] ، وليس المقام الذي يصفون أنفسهم به هو مقام الحكومة الظاهريّة الاجتماعيّة ، وتولّي الأُمور الشرعيّة والأحكام الإلهيّة الظاهريّة . بل المراد ذلك الفناء في الذات الأحديّة الذي يتلازم مع وجه الله وصيرورته مظهراً تامّاً للصفات الجماليّة والجلاليّة الذي لا يقارن بأيّ منصب ومقام .

وفي طريق السير تكون **المُراقَبَة** من أهمّ الأُمور وهي في حكم ضرورة من ضروريّاته .

١ـ «الميزان» ج ٨ ، ص ٣٦٧ ، في تفسير الآية ١٨٠ من سورة الأعراف.

فينبغي للسالك أن لا يخلي نفسه دون مراقبتها منذ أن يضع قدمه الأُولى في الطريق وحتّى آخره ، فهي من الضرورات المؤكّدة . وليعلم أنَّ المراقبة درجات ومراتب ، فمنها ما يناسب المراحل الأوّليّة ، ومنها ما يناسب المراحل التي تليها . فكلّما سار نحو الكمال وطوى المراحل والمنازل أصبحت مراقبته أدقّ وأعمق بحيث لو حُمّلت تلك الدرجات من المراقبة على السالك المبتدئ لن يستطيع القيام بها ، بل يترك السلوك فوراً ويهجره أو يحترق ويهلك ، ولكن شيئاً فشيئاً على أثر المراقبة في الدرجات الأوّليّة والتقوى في السلوك يمكنه أن يصل إلى المراتب العالية من المراقبة في المراحل التالية ، وعندها فإنَّ الكثير من المباحات التي كانت له في المراحل الأوّليّة تصبح حراماً وممنوعة عليه .

وعلى أثر المراقبة الشديدة والاهتمام بها تسطع أنوار الحبّ والعشق في ضمير السالك ؛ لأنَّ حبّ الجمال والكمال لدى الإنسان أمر فطريّ على الإطلاق ، وقد خمر في جبلّته وأُودع في ذاته ، إلّا أنَّ حبّ المادّة والتعلّق بالكثرات يصبح حجاباً للعشق الفطريّ فلا يدع هذا النور الأزليّ يظهر فيه .

وبالمراقبة تضعف هذه الحجب شيئاً فشيئاً إلى أن تزول في النهاية ، فيظهر ذلك الحبّ والعشق الفطريّ ليقود الإنسان إلى مبدأ

الجمال والكمال . ويعبّر عن هذه المراقبة في اصطلاح العارفين بـ «المدام» (أو الخمر) .

به پير ميكده گفتم كه چيست راه نـجات

بخواست جام «مى» و گفت راز پوشيدن[1]

* * *

راه خـلوتگه خـاصَم بـنما تـا پس ازيـن

«مى» خورم با تو وديگر غم دنيا نخورم[2]

عندما يواظب السالك على المراقبة ، يـظهر اللـه سـبحانه تعالى عليه من باب العطف والرأفة أنواراً بعنوان الطلائع ، في بداية الأمر تظهر هذه الأنوار مثل البرق لتختفي فجأة ، ثمّ تـقوى شـيئاً فشيئاً حتّى تصبح مثل النجمة الصغيرة المتلألأة ، ثمّ تقوى لتصبح مثل القمر ، وبعدها تظهر كالشمس الساطعة ، وأحياناً مثل ضـوء

١ـ «ديوان حافظ» غزل ٣٨٧ ، ص ٣٩٠ ، طبعة پژمان .

يقول : «سألت شيخ الحانة عن طريق النجاة فتناول كأس الشراب وأجابني كتمان السرّ» .

٢ـ «ديوان حافظ» ص ١٦٦ .

يقول : «اجعلني من أخصّ عبادك ، لنختلي بعدها ونشرب معاً فأنسى هموم الدنيا» .

مصباح أو قنديل مشتعل . وهذه الأنوار تُسمّى في اصطلاح العارفين بـ «النوم العرفانيّ» ، وهي من قبيل الموجودات البرزخيّة .

وحينما يترقّى السالك في مراتب المراقبة لتكتمل عنده مراحلها تُصبح هذه الأنوار أقوى ، فيرى السالك كلّ السماء والأرض شرقاً وغرباً دفعة واحدة مضيئة مشرقة ، هذا النور هو نور النفس الذي يسطع حين العبور من عالم البرزخ . لكن في المراحل الأُولى للعبور عند ابتداء ظهور التجلّيات النفسيّة يشاهد السالك نفسه بصورة مادّيّة ، وبعبارة أُخرى قد يلاحظ نفسه وكأنّها واقفة أمامه ، وهذه المرحلة هي مرحلة ابتداء التجرّد .

يقول المرحوم **الأُستاذ العلّامة القاضي** رضوان الله عليه : «خرجت من غرفتي يوماً متخطّياً ممرّ البيت ، فرأيت نفسي واقفة بسكون إلى جانبي ، فنظرت إليها بدقّة متناهية فرأيت في وجهي خالاً لم ألحظه من قبل ، وعندما دخلت إلى الغرفة ونظرت في المرآة ؛ رأيت فعلاً أنّه كان يوجد في وجهي خال . ولم أكن حتّى ذلك الوقت ملتفتاً إليه» .

وأحياناً يشعر السالك أنّه قد أضاع نفسه ، ومهما بحث عنها لا يستطيع العثور عليها ، ويقال إنَّ هذه المشاهدات تقع في المراحل الابتدائيّة لتجرّد النفس ، وهي (المراحل) مقيّدة بالزمان

والمكان ، وفيما بعد ـ وببركة التوفيقات الإلهيّة ـ يستطيع السالك أن يرى حقيقة نفسه بتجرّدها التامّ والكامل .

وينقل عن المرحوم **الحاجّ الميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ** رضوان الله عليه ، الذي كان تلميذاً ملازماً لأُستاذ العرفان والتوحيد المرحوم **المولى حسين قلي الهمدانيّ** رضوان الله عليه مدّة أربع عشرة سنة ، أنّه قال :

«ذات يوم قال لي الأُستاذ : أُوكِلْتُ مهمّة تربية التلميذ الفلانيّ إليك ، وكان ذلك التلميذ يملك همّة عالية وعزماً راسخاً ، فقضى ستّ سنوات في المراقبة والمجاهدة حتّى وصل إلى مقام القابليّة المحضة للإدراك وتجرّد النفس ، فأردتُ أن ينال هذا السالك طريق السعادة وهذا الفيض على يد الأُستاذ ويكتسي بهذه الخلعة الإلهيّة ، فأحضرته إلى بيت الأُستاذ ، وبعد عرض الأمر عليه قال الأُستاذ : ليس هذا بشيء ، ثمّ أشار بيده وقال : التجرّد مثل هذا فقال ذلك التلميذ : رأيت أنّني فصلت عن جسدي فوراً ، وشاهدت إلى جانبي موجوداً مثلي» .

وليعلم أنَّ شهود الموجودات البرزخيّة ليس له ذلك القدر من الشرافة ، بل الشرافة في رؤية النفس في عين التجرّد التامّ والكامل ؛ لأنَّ النفس في هذه الحال تسطع بتمام حقيقتها المجرّدة

فتُشاهد بصورة موجود لم يكن يحدّها زمان ولا مكان ، بل تحيط بمشرق العالم ومغربه ، وهذا الشهود ـ على خلاف شهود المراحل الأُولى ـ ليس جزئيّاً ، وإنَّما هو من قبيل إدراك المعاني الكلّيّة .

نُقِلَ عن المرحوم **السيّد أحمد الكربلائيّ** رضوان الله عليه الذي كان من تلامذة المرحوم الهمدانيّ البارزين ، أنّه قال :

«كنت ذات يوم أستريح في مكان ما ، فأيقظني شخص وقال : إذا أردت أن تشاهد نور الأسفهبديّة فقم من مكانك ، وعندما فتحت عيني رأيت نوراً ليس له حدّ أو حدود ، يحيط بمشرق العالم ومغربه» . **اللَهُمَّ ارْزُقْنَا** . وهذه هي مرحلة تجلّي النفس التي تشاهد بتلك الصورة على هيئة نور غير محدود .

وبعد عبور هذه المرحلة يوفّق السالك السعيد ـ على إثر الاهتمام بالمراقبة المتناسبة مع العوالم العلويّة ومقتضيات تلك المنازل والمراحل ـ لمشاهدة صفات الباري تعالى ، أو إدراك أسماء الذات المقدّسة بنحو كلّيّ . وكم يحدث في هذه الحال أن ينتبه السالك فجأة إلى أنَّ جميع موجودات هذا العالم هي علم واحد ، أو أنّه لا يوجد أبداً غير قدرة واحدة ؛ هذا في مرحلة شهود الصفات ، أمّا في مرحلة شهود الأسماء والتي هي أرفع درجة منها ، يُلاحِظ السالك أنَّ الموجود في كلّ العوالم عالم واحد وقادر واحد

وحيّ واحد .

وممّا لا شكّ فيه أنَّ هذه المرحلة هي أشرف وأكمل من مرحلة إدراك الصفات التي توجد في مرتبة القلب ؛ «لأَنَّ السَّالِكَ يُصْبِحُ وَلاَ يَرَى قَادِرَاً وَلاَ عَالِمَاً وَلاَ حَيَّاً سِوَى اللَهِ تَعَالَى» . وهذا الشهود غالباً ما يظهر في حال تلاوة القرآن . فكثيراً ما يتسنّى للقارئ أن لا يرى نفسه قارئاً ، بل إنَّ القارئ شخص آخر ، وقد يدرك أحياناً أنَّ المستمع أيضاً كان شخصاً آخر .

واعلم أنَّ لقراءة القرآن في حصول هذا الأمر تأثيراً كبيراً جدّاً ، ويحسن أن يقرأ السالك حين الاشتغال بصلاة الليل سور العزائم ؛ لأنَّ السجود للّه فجأة من حال القيام لا يخلو من اللطف . وقد ثبت بالتجربة أنَّ قراءة السورة المباركة «ص» في ركعة الوتر من صلاة الليل ليلة الجمعة مؤثّر جدّاً ، وفائدة هذه السورة تُعلم من الرواية التي وردت بشأن ثوابها .

وحين يطوي السالك هذه المراحل بالتوفيق الإلهيّ ، ويوفّق للمشاهدات القدسيّة ، سوف تحيط به الجذبات الإلهيّة لتقرّبه في كلّ آن إلى الفناء الحقيقيّ ، إلى أن تحيط به أخيراً الجذبة التي تجعله متوجّهاً إلى الجمال والكمال المطلق ، فيشتعل وجوده الخاصّ وكلّ عالم الوجود في عينيه بأنوار الطلعة البهيّة للمعشوق ،

فلا يرى أثراً لسواه ، **كَانَ اللَهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ** .[1]

في هذه الحال يتخطّى السالك وادي الهجران ليستغرق في بحر مشاهدات الذات الربوبيّة اللامتناهي .

ولا يخفى أنَّ سير السالك وسلوكه لا يتنافى مع وجوده في عالم المادّة ، فإنَّ بساط الكثرة الخارجيّة يبقى على حاله ، ليحيا السالك في الوحدة مع عين الكثرة . قال أحدهم : بقيت بين الناس ثلاثين عاماً كانوا يظنّونني معهم ومراوداً لهم ، والحال أنّني خلال تلك المدّة لم أكن أعرف ولا أرى منهم أحداً سوى الله .

هذه الحالة مهمّة جدّاً ، وتحوز على أهمّيّة عظيمة ، فمن الممكن أن تظهر في البداية وللحظة واحدة ، ولكن شيئاً فشيئاً تشتدّ لِتَصِلَ إلى عشر دقائق أو أكثر ، ثمّ ساعة أو أكثر ، لتنتقل بعدها بالعناية الإلهيّة من **الحال** العابر إلى **المقام** .

ويُعبّر عن هذه الحالة في الأخبار وعلى لسان العظماء بـ **البقاء بالمعبود** ، ولا يمكن الوصول إلى هذه المرتبة من الكمال إلّا بعد حصول الفناء الكلّيّ لعالَم الإمكان في حقيقة الوجود الإلهيّ ، وعندها لن يرى السالك شيئاً سوى الذات الإلهيّة المقدّسة .

١ـ «توحيد علمي وعيني» (= التوحيد العلميّ والعينيّ) ص ١١٤ و ١١٥ .

كُتِبَ : «طُلِبَ من أحد المنجذبين بالجذبة الإلهيّة ويُدعى **بابا فرج الله المجذوب** أن يصف الدنيا ، فقال : مذ فتحتُ عينَيّ لم أرَ الدنيا حتّى أصفها لكم» .[1]

ويعبّر عن هذا الشهود الابتدائيّ الذي لم يقوَ حتّى ذاك

١ـ شرح حال «بابا فرج المجذوب» موجود في كتاب «تاريخ حشرى» (=تأريخ الحشريّ) في حالات العرفاء المتوفّين في تبريز ، وقد جاء كلام «بابا فرج» هذا في الكتاب منظوماً :

که فرج تا که دیده بگشادست   چشم او بر جهان نیفتاده‌است

وترجمته : «إنَّ عينيْ فَرَج لم تشاهد الدنيا منذ أن فتحها».

ونظيره ما أنشده حافظ ، ونظيره ما أنشده حافظ («ديوان حافظ» غزل ٣٨٧ ص ٣٩٠، طبعة پژمان) :

منم که شهرهٔ شهرم به عشق ورزیدن

منم که دیده نیالوده‌ام به بد دیدن

وترجمته :

أنا من كنت في بلدي بالعشق مشهورا

أنا من لم تشاهد عيناه سواه محبوبا

وعن ابن الفارض أيضاً («ديوان ابن الفارض» ص ١٨٢) :

وحَيَاةِ أَشْوَاقِي إلَيْكَ وَتُرْبَةِ الصَّبْرِ الجَمِيلِ

مَا اسْتَحْسَنَتْ عَيْنِي سِوَاكَ وَلَا صَبَوْتُ إلَى خَلِيلِ

وقد نقل أنّه نظم هذا البيت في عالم الرؤيا .

الوقت بـ«الحال» ، ويكون السالك فيه غير مختار ، ولكن على إثر شدّة المراقبة والعناية الإلهيّة ينتقل السالك إلى «المقام» ، ويُصبح هنالك مختاراً .

ومن البديهيّ أنَّ السالك القويّ هو الذي يكون في عين شهود هذه الأحوال متوجّهاً إلى عالم الكثرة ، ويدير كلا العالمين ، وهذه المرتبة رفيعة جدّاً والوصول إليها في غاية الصعوبة ، ولعلّها تختصّ بالأنبياء والأولياء ومن اختاره الله تعالى ، فهؤلاء في عين الاشتغال بنعمة **لِي مَعَ اللَهِ حَالَاتٌ لاَ يَسَعُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ**[1] ، تظهر منهم جلوات وتجلّيات **أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ**.[2]

وإذا قيل : إنَّ هذه المناصب اختصاصيّة ، والوصول إلى هذه الذروة من المعارف الإلهيّة منحصر بالأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام ، وإنَّ الآخرين ليس بإمكانهم الوصول إلى هذا الطريق أبداً .

نقول : إنَّ منصب النبوّة والإمامة أمر اختصاصيّ ، ولكنَّ الوصول إلى مقام التوحيد المطلق والفناء في الذات الأحديّة الذي

١ـ «جامع الأسرار» ص ٢٧ و ٢٠٥ ؛ و «كشف المحجوب» للهجويريّ ، ج ٢ ، ص ٦١٦ .

٢ـ الآية ١١٠ ، من السورة ١٨ : الكهف .

يُعبَّر عنه بالولاية ليس أمراً اختصاصيّاً أبداً ، ودعوة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام أُممهم إلى هذه المرحلة من الكمال ، ودعوة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أُمّته إلى اقتفاء آثار مسيره حيثما سار ، خير دليل على إمكان السير إلى ذلك المقصد ، وإلّا لزم أن تكون الدعوة لغواً . **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَهَ كَثِيرًا.**[1]

روي عن طريق العامّة ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال :

لَولَا تَكْثِيرٌ في كَلَامِكُمْ ، وَتَمْرِيجٌ في قُلُوبِكُمْ لَرَأَيْتُمْ مَا أَرَى ، وَلَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ .

هذا الحديث يبيّن بوضوح سبب عدم الوصول إلى الكمالات الإنسانيّة ، وهذا السبب هو الخيال الشيطانيّ الباطل ، والأفعال العابثة اللاغية .

وروي أيضاً عن طريق الخاصّة :

لَولَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَحُومُونَ حَوْلَ قُلُوبِ بَنِي آدَمَ لَرَأَوا مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ .[2]

١ـ الآية ٢١ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

٢ـ «بحار الأنوار» ج ٧٠ ، ص ٤٤ ؛ و «المحجّة البيضاء» ج ٢ ، ص ١٢٥.

ومن جملة آثار تلك المرتبة الإنسانيّة العالية : الإحاطة الكلّيّة ـ بقدر الاستعدادات الإمكانيّة ـ بالعوالم الإلهيّة ، ونتيجة هذه الإحاطة الاطّلاع على الماضي والمستقبل والتصرّف في موادّ الكائنات ، إذ للمحيط غاية التسلّط على المحاط عليه ، فهو مرافق للجميع ، وحاضر في كلّ مكان .

يقول أحد العارفين وهو **الشيخ عبد الكريم الجيليّ** في كتابه «**الإنسان الكامل**» : «أذكر مرّة عرضت لي حالة في فترة مرّت كلمح البصر وجدت نفسي خلالها متّحدة مع جميع الموجودات بحيث كنت أراها جميعاً حاضرة لدي عياناً ، ولكنَّ هذه الحال لم تستمرّ لأكثر من لحظة» .

والمانع من دوام استمرار هذا الحال هو الاشتغال بأُمور البدن ، وأنَّ حصول كلّ هذه المراتب متوقّف على ترك تدبير البدن . يقول أحد عرفاء الهند واسمه **الشيخ وليّ الله الدهلويّ** في كتابه «الهمعات» : أَطلعوني على أنَّ التخلّص من آثار النشأة المادّيّة يحصل بعد مرور خمسمائة عام على اجتياز عالم المادّة والموت ، وهذه المدّة مطابقة لنصف يوم من الأيّام الربوبيّة ، لقوله عزّ من قائل : **وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ** .[1]

١ـ الآية ٤٧ ، من السورة ٢٢ : الحجّ .

ومعلوم أنَّ سائر درجات وفيوضات هذا العالم بلا حدّ ولا نهاية، ثمّ لمّا كانت الألفاظ توضع للمعاني على أساس الاحتياجات البشريّة فتتّسع بمقدار اتّساعها. لذا لم يكن من الممكن بيان الحقائق والأنوار المجرّدة لعالم الربوبيّة بالألفاظ، وكلّ ما قيل فيها لا يعدو كونه إشارة أو كناية ليس بمقدورها إنزال تلك الحقائق إلى مستوى الأفهام.

فالإنسان المادّيّ باعتبار أنّه يحيا **في أظْلَمِ العَوَالِمِ** الإلهيّة كما تصرّح بذلك بعض الأخبار: «أنت في أظلم العوالم» لا يضع الألفاظ إلّا لما يقع على بصره أو تناله يده ممّا يدخل في إطار حاجاته اليوميّة، أمّا سائر العوالم والتعلّقات والتشعشعات والأنوار والأرواح التي لا علم له بها فلا يضع لها ألفاظاً، فلا يوجد ـ بناءً على ذلك ـ لغة في العالم يتسنّى لها التحدّث عن هذه المعاني السامية، فكيف يمكن إذَن توصيف هذه المعاني وبيانها؟

مشكل عشق نه در حوصلهٔ دانش ماست

حلّ اين نكته بدين فكر خطا نتوان كرد[1]

والذين تحدّثوا عن هذه الحقائق طائفتان، هما:

١ـ «ديوان حافظ» غزل ١٣٣، ص ١٣٣، طبعة پژمان.

يقول: «لا يمكن لأفكارنا القاصرة أن تحلّ معضلة الهيام».

الأُولى : الأنبياء الكرام عليهم السلام ، حيث ولا شكّ كانت لهم رابطة مع عوالم ما وراء المادّة ، ولكنّهم بحكم الحديث القائل : **نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ**[1] اضطرّوا أن يعبّروا عن هذه الحقائق تعبيراً قابلاً لإدراك عامّة الناس له ؛ ولهذا غضّوا النظر عن بيان الحقائق النورانيّة والغاية الساطعة ، ولم يفصحوا عن تبيان ما لا يخطر على قلب بشر ، وكانوا يعبّرون عن حقيقة **مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**[2] بتعابير مثل الجنّة والحور والقصور وغيرها ، ولهذا اعترفوا في النهاية بأنَّ حقائق تلك العوالم لا يحدّها وصف ولا يسعها بيان .

الثانية : طائفة من الناس كان نصيبهم ـ من خلال متابعة طريق الأنبياء ـ التشرّف بإدراك هذه الحقائق والفيوضات بقدر اختلاف استعداداتهم ، وقد كان كلامهم تحت ستار الاستعارة والتمثيل .

عالم الخلوص والإخلاص

وليعلم أنَّ الوصول إلى هذه المقامات والدرجات لا يمكن

١ـ «توحيد علمي وعيني» (= التوحيد العلميّ والعينيّ) ص ١٣٦.

٢ـ «المحجّة البيضاء» ج ٧ ، ص ٥٧ ؛ و «بحار الأنوار» ج ٨ ، ص ٩٢.

أن يتحقّق دون الإخلاص في سبيل الحقّ ، وما دام السالك لم يصل إلى منزلة المخلَصين ، فلن يتمّ له كشف الحقيقة كما ينبغي .

واعلم أنَّ الإخلاص والخلوص على قسمين : الأوّل : خلوص الدين والطاعة للّه تعالى . الثاني : خلوص النفس له تعالى . يدلّ على الأوّل الآية الكريمة : **وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ .**[1] وعلى الثانية الآية الشريفة : **إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .**[2] والحديث النبويّ المشهور : **مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ إِلَى لِسَانِهِ** ، أي أنَّ الذي يصل إلى هذه المرحلة هو ذاك الذي أخلص نفسه للّه تعالى .

وتوضيح هذا الإجمال أنَّ الله تعالى كما أسند الصلاح في القرآن الكريم وفي بعض المواضع إلى العمل ، كقوله تعالى :

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا[3] ، أو **عَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا**[4] ، أو **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ**[5] ، وفي بعض المواضع أسند ذلك أيضاً

١ـ الآية ٥ ، من السورة ٩٨ : البيّنة .

٢ـ الآية ٤٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٣ـ الآية ٩٧ ، من السورة ١٦ : النحل .

٤ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٢٥ : الفرقان .

٥ـ الآية ٢٩ ، من السورة ١٣ : الرعد .

إلى ذات الإنسان ، كقوله تعالى : **إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ**[1] ، أو **صَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ**[2] كذلك اعتبر أنَّ الإخلاص والخلوص يستند إلى العمل أحياناً وقد نسبه إليه ، وأحياناً يستند إلى الذات . وبديهيّ أنَّ تَحَقُّقَ الإخلاص في مرتبة الذات متوقّف على الإخلاص في مرتبة العمل أي أنَّ الذي لم يُخلِص في أعماله وأفعاله وأقواله وفي سكناته لن يصل إلى مرحلة الإخلاص الذاتيّ ؛ قال عزّ من قائل : **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ**[3] ، بإرجاعه الضمير المستتر الفاعل في «يرفع» إلى «العمل الصالح» إذ يصبح المعنى «العَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ» . واعلم أنَّ الذي يصل إلى مرحلة الخلوص الذاتيّ وينال هذا الفيض العظيم ، سوف تكون له آثار وخصائص ليست من نصيب الآخرين ، منها :

الأوّل : ما نصّت عليه بعض الآيات من عدم تسلّط الشيطان عليه ، كقوله تعالى : **فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ**[4] ، وممّا لا ريب فيه أنَّ هذا الاستثناء للمخلصين

١ـ الآية ٧٥ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ٤ ، من السورة ٦٦ : التحريم .

٣ـ الآية ١٠ ، من السورة ٣٥ : فاطر .

٤ـ الآيتان ٨٢ و ٨٣ ، من السورة ٣٨ : ص .

تشريعيّاً ، وإنَّما هو أثر طبيعيّ لاقتدارهم الذاتيّ في مقام التوحيد ، حيث لا يعود للشيطان قدرة على إغوائهم ، وبسبب ضعفه وعجزه لا يستطيع أن يصل إليهم في هذه المرحلة ؛ ولأنّهم أخلصوا أنفسهم للّه يرون الله في كلّ ما تقع عليه أبصارهم ، وإذا بدا لهم الشيطان بأيّ شكل أو هيئة ، تراهم ينظرون إلى هذه الهيئة بالنظر الإلهيّ ليغترفوا منها فيضاً إلهيّاً ، لهذا اعترف الشيطان منذ البداية بالعجز عن التأثير في هذه الطائفة ، ولم يكن ذلك منه مُحاباةً لهم أو ترحّماً عليهم ، إذ لا غاية للشيطان سوى الغواية والإضلال .

الثاني : أنَّ هذه الطائفة معفوّة من حساب يوم الحشر الآفاقيّ والوقوف في عرصاته ، وقد جاء في القرآن الكريم :

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ .[1]

فيعلم من هذه الآية الكريمة ـ بشكل قطعيّ ـ وجود جماعة تأمن صعقة يوم القيامة وفزعه ، وإذا ضممنا إليها الآية الشريفة : **فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ**[2] ، يتّضح أنَّ الطائفة التي هي في أمان من صعقة يوم القيامة هي «عباد الله المخلصين» ؛

١ـ الآية ٦٨ ، من السورة ٣٩ : الزمر .

٢ـ الآيتان ١٢٧ و ١٢٨ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

لأنّه ليس لهؤلاء أعمال توجب حضورهم في عرصة يوم القيامة ، فهم قد قتلوا في ساحات جهاد النفس وترويضها بالمراقبة والعبادات الشرعيّة ، وتعلّقوا بالحياة الأبديّة بعدما اجتازوا القيامة الأنفسيّة العظمى ، وقد تمّ حسابهم خلال فترة المجاهدة ، فجلّلوا بعد نيلهم شرف القتل في سبيل الله بخلعة الحياة الأبديّة ، لينعموا بفيض الخزائن الربوبيّة ؛ قال عزّ من قائل :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .[1]

يضاف إلى ما تقدّم أنَّ الإحضار ينشأ من عدم الحضور ، فهم قبل ظهور القيامة كانوا حاضرين في كلّ مكان ، ومطّلعين على كلّ الأحوال ؛ لقوله تعالى : **عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ .**

الثالث : أنَّ كلّ ما يعطى للإنسان من ثواب وأجر يوم القيامة سوف يكون مقابل ما عمله إلّا هذه الطائفة من الناس تتعدّى الكرامة الإلهيّة لهم حدود أجر العمل المعهود : **وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .**[2]

ولو قيل : إنَّ مفاد هذه الآية هو أنَّ المعذّبين يجزون بحسب

١ـ الآية ١٦٩ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآيتان ٣٩ و ٤٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

أعمالهم ، أمّا عباد الله المخلَصين فلن يكون جزاؤهم بحسب أعمالهم ، بل الله المنّان سوف يعطيهم بفضله وكرمه . نقول : إنَّ في الآية إطلاق ، فلا يختصّ الخطاب فيها بفئة المعذّبين ، يضاف إلى ذلك أنَّ مجازاة العباد بالفضل والكرم الإلهيّ لا يتنافى مع الجزاء الذي يقابل العمل ، وإن كان معنى الفضل هو أنَّ الله المنّان يعطي الأجر العظيم في قبال العمل الصغير ، فيعدُّ تعالى العمل الصغير كبيراً ، ولكن مع هذا كلّه يبقى الجزاء واقع في قبال العمل ، في حين أنَّ الآية الكريمة تصرّح بأنَّ جزاء المخلَصين غير هذا ؛ ومفادها : أنَّ عباد الله المخلَصين لا ينالون الجزاء مقابل العمل أبداً ، وجاء في آية أُخرى :

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ .[1]

فكلّ ما تتعلّق به مشيئتهم يتاح لهم وزيادة عليه ، يتّضح من هذا أنّهم يُعطون من الكرامات الإلهيّة فوق ما تتعلّق به الإرادة والمشيئة ، وأعلى من مستوى التصوّر ، وأعلى مستوى من فضاء تحليق طائر اختيارهم وإرادتهم . ولهذه المسألة دقائق جديرة بالانتباه .

١ـ الآية ٣٥ ، من السورة ٥٠ : ق .

الرابع : أنَّ لهؤلاء المقام المنيع والمنصب الرفيع والمرتبة العظيمة التي يستطيعون فيها أداء الحمد والشكر والثناء للذات الأحديّة كما هو لائق بالذات المقدّسة . قال عزّ من قائل : **سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ** .[1] وهذه غاية كمال المخلوق ، ومنتهى الدرجة الممكنة .

من مجموع البيانات السابقة نرى قدر مميّزات المراحل الأخيرة للسلوك التي هي مقام المخلَصين ، وكم هي الفيوضات التي تترتّب عليها ، ولكن ينبغي أن يعلم أنَّ الوصول إلى هذه الكمالات وتحصيل هذه الحقائق لا يتيسّر إلّا لمن يُقتَل في ميدان الجهاد في سبيل الله ، ولا يرتوي من الفيوضات الإلهيّة إلّا مَن انتهل من كأس الشهادة . والمراد من القتل : قطع علاقة الروح بالبدن ومتعلّقاته كما يقطع الشهيد في معركة القتال علاقة روحه ببدنه بواسطة السيف الظاهريّ ، كذلك سالك طريق الله ينبغي أن يقطع ـ بواسطة الاستمداد من القوى الرحمانيّة ـ علاقة روحه عن البدن ومتعلّقاته بالسيف الباطنيّ في ميدان جهاد النفس الأمّارة .

وعلى السالك في بداية السلوك إلى الله أن يقطع وشائج

١ـ الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

التعلّق بعالم الكثرة عن طريق الزهد والتأمّل والدقة والتفكّر في ضعة الدنيا وعدم فائدة التعلّق بها ، فنتيجة الزهد انعدام الرغبة والميل إلى الأشياء ، ويترتّب عدم الفرح بالأُمور التي تجلب النفع المادّيّ له ، وعدم الحزن من الوقائع التي تؤدّي إلى ضرره المادّيّ .

لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ .[1]

وهذا لا يتنافى مع الحزن والفرح في الله ؛ لأنَّ هذا الفرح ليس من حبّ المال والمصالح والاعتبارات الكاذبة ، بل من جهة أنّه يرى نفسه غارقاً في بحر إحسان الله وكرمه .

وبعد طيّ هذه المرحلة يلتفت السالك إلى أنّه يُحبّ ذاته حبّاً مفرطاً ، وأنَّ هذا الحبّ يصل إلى درجة العشق ، وأنَّ كلّ ما يؤدّيه وكلّ جهاده ناشئ من فرط حبّه لذاته ؛ لأنَّ إحدى خصائص الإنسان حبّه لنفسه بالفطرة ، وتضحيته بكلّ شيء من أجلها ، بل الاستعداد لإبادة أيّ شيء من أجل بقائها . والتخلّص من هذه الغريزة صعب جدّاً ، ومواجهة هذا الحسّ ـ الذي هو حبّ النفس ـ ومجاهدته من أعقد المشاكل ، وما دامت هذه الغريزة باقية لن يتجلّى نور الله في القلب ، وبعبارة أُخرى : إذا لم يتجاوز

١ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٥٧ : الحديد .

السالك لن يصل إلى الله تعالى .

وعلى السالك أن يستمدّ العون من الألطاف الإلهيّة والإمدادات الرحمانيّة المطلقة لإضعاف حبّ الذات حتّى يزيله في النهاية ؛ فعليه أن يكفر بهذا الصنم الباطنيّ الذي هو رأس كلّ المفاسد وينساه كلّيّاً ، بحيث تكون أعماله ـ عند التأمّل والتحقيق ـ كلّها للذات الإلهيّة المقدّسة ، ويتبدّل حبّ ذاته إلى حبّ الله تعالى ، ولا يتمّ هذا إلّا بالمجاهدة ، وبعد طيّ هذه المرحلة لن يكون للسالك أيّ تعلّق بالبدن وآثاره حتّى روحه التي تجاوزها ، فيكون كلّ ما يعمله خالصاً للّه . فكلّ ما يعمله للّه ، وإذا سدّ جوعه وهيّأ لوازم الحياة والعيش بقدر الكفاف والضرورة فذلك لأنَّ المحبوب الأزليّ يريد حياته وإلّا لا يخطو خطوة من أجل تحقّق حياة هذه النشأة .

وبالطبع فإنَّ هذه الإرادة للحياة هي في طول الإرادة الإلهيّة لا عرضها ؛ وعلى هذا الأساس لا يحقّ للسالك أن يسعى للحصول على الكشف والكرامات ، ويعمل من أجل تحقيقها ، بواسطة الأذكار والرياضات الروحيّة من أجل أن تُطوى له الأرض ، أو يُخبَر عن المغيّبات ، أو يطّلع على الضمائر والأسرار ، أو التصرّف في موادّ الكائنات ، أو لاستكمال وبروز القوى النفسانيّة ، لأنَّ مثل هذا

الشخص لا يسير في الدرب الذي يُرضي المحبوب ، ولن يكـون مخلصاً في عبادته فهو قد جعل نفسه المعبود ، وسار لقضاء حاجاته وتحقيق رغباته الخاصّة ، وإن كان لا يعترف بهذا المنكر فيؤدّي كلّ عباداته ـ على الظاهر ـ في سبيل الله .

ومثل هذا الإنسان ينطبق عليه قوله تعالى : **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ**.[1] فعلى السالك أن يجتاز هذه المرحلة ، ويهجر نفسه المتمسّكة بالأنانيّة . وسَيَأْتِي الكَلَامُ فيه إن شاء الله تعالى .

وعندما يـصل السـالك إلى هـذه المـرحـلة سـوف يـنسى ـ تدريجيّاً ـ نفسه التي كان يحبّها للّه ، فتضمحلّ ذاته ، ولن يرى بـعد ذلك غـير الجـمال الأزليّ والأبـديّ ، فـيغمره ذلك البـحر اللامتناهي ، وعندها لن يبقى له أيّ أثر .

وعلى السالك أن يحذر ـ في تلك الحرب النفسيّة ـ حيل الشيطان وجنوده ، حتّى يتغلّب عليهم ويتخلّص من الآثار النفسيّة لذاته كاملاً ، ويقتلع جذورها من الزوايا الخفيّة في القلب ، فمع بقاء ذرّة واحدة من حبّ المال والجاه والمـنصب والكـبر وحبّ النفس والرئاسة فـيه لن يـصل أبـداً إلى الكـمال ؛ ولهـذا شُـوهد

١ـ الآية ٢٣ ، من السورة ٤٥ : الجاثية .

الكـثيرون مـن الذيـن قـضوا سنوات طـويلة فـي الريـاضات والمجاهدات ولم يصلوا إلى الكمال ، بل لاقوا الهزيمة في مجاهدة النفس ؛ وعلّة ذلك أنَّ جذور بعض الصفات كانت باقية في أعماق قلوبهم وهم يظنّون أنّها قد أُزيلت بالكامل ، وفي مواقع الامتحان الإلهيّ وفي مظانّ بروز النفس وتجلّي آثارها تهتزّ هـذه الجـذور وتنمو فجأة فيقضي على السالك .

ثمّ إنَّ النجاح في غلبة النفس وجنودها منوط بالمدد الغيبيّ والعناية الإلهيّة الخاصّة ، لأنَّ طيّ هذه المـرحـلة لن يكـون دون توفيقه وعنايته الخاصّين .

يقال : إنَّ تلامذة المرحوم السيّد بحر العلوم رأوه يوماً وهو يبتسم ، فسألوه عن السبب ، فأجاب : اليوم ، وبعد خمس وعشرين سنة من المجاهدة ، نظرتُ في نفسي فرأيت أنَّ أعمالي لم يعد فيها رياء ، وأنّني وُفِّقْتُ لرفعه . فَتَأَمَّل جَيِّدَاً .

وعلى السالك أن يكون ملازماً للشريعة الغرّاء منذ بـدايـة السير والسلوك وحتّى آخر مراحله ، ولا يتجاوز ظاهر الشريعة بقدر رأس الإبرة . فلو رأيت شخصاً يدّعي السـلوك ولا يـلازم التـقوى والورع ولا يتابع جميع الأحكـام الشـرعيّة الإلهـيّة وانـحرف عـن الصراط المستقيم للشريعة الحقّة ولو بقدر رأس الإبرة ، فاعلم أنّه

منافق إلّا إذا كان له عذر أو كان مخطئاً أو ناسياً .

وما سُمِعَ من البعض ـ من القول بسقوط التكاليف عن السالك بعد الوصول إلى المقامات العالية والفيوضات الربّانيّة ـ حديث كاذب وافتراء عظيم ؛ لأنَّ الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم مع أنّه أشرف الخلائق والموجودات كان ملازماً ومتابعاً للأحكام الإلهيّة حتّى آخر أيّام حياته ، فسقوط التكليف ـ بهذا المعنى ـ كذب وبهتان . نعم ، يمكن أن نفهم منه معنى آخر غير ما يقصده هؤلاء ، وهو : أنَّ أداء الأعمال العباديّة يوجب كمال النفوس البشريّة ويوصل الإنسان بواسطة الالتزام بالسنن العباديّة من مراحل القوّة إلى الفعليّة . لهذا فإنَّ عبادة أُولئك الذين لم يصلوا بعد إلى مرحلة الفعليّة من جميع الجهات هي لأجل الإستكمال ، أمّا أُولئك الذين وصلوا إلى مرحلة الفعليّة التامّة ، فلا معنى لأن تكون عبادتهم للحصول على الكمال وتحصيل مقام القرب ، بل العبادة من هؤلاء لها معنى آخر يقتضيه نفس حصولهم على درجة الكمال ؛ لهذا عندما سألت عائشة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن سبب تحمّله هذه الآلام والأتعاب في العبادة رغم أنَّ الله تعالى قال له :

لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ .[1]

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ألاَ أكونُ عبداً شكوراً ؟» .[2]

فاتّضح بذلك أنَّ الإتيان بالأعمال العباديّة من البعض لم يكن طلباً للكمال ، بل محض إظهار الإمتنان والشكر الجزيل .

علماً بأنَّ الحالات التي تظهر للسالك على أثر المراقبة والمجاهدة والأنوار والآثار التي تُصبح مشهودة له من حين إلى آخر ، كلّ هذه مقدّمة تحصيل الملكة ، فمجرّد ترتّب الآثار وتغيّر الحال في الإجمال ليس كافياً ، بل يجب على السالك أن يسعى لرفع بقايا العالَم السافل الكامن في ذاته ، فإنَّه ما لم يسانخ صالحي العالم العالي لن يكون الوصول إلى مراتبهم ميسوراً له ، فمن شأن أيّ خطأ صغير في السلوك والجهاد أن يعيده مجدّداً إلى العالم السافل . قال تعالى :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ .[3]

فالآية الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة ؛ إذَن ينبغي للسالك

١ـ الآية ٢ ، من السورة ٤٨ : الفتح .

٢ـ «أُصول الكافي» ج ٢ ، ص ٩٥ .

٣ـ الآية ١٤٤ ، من السورة ٣ : آل عمران .

أن يُطهِّر ظاهره وباطنه كاملاً وكلّ زوايا وخفايا قلبه حتّى يـوفّق لصحبة الأرواح الطيّبة ، ومجالسة صالحي الملأ الأعلى .

وَذَرُوا ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ .[1] ومن هنا ينبغي للسالك تخطّي العوالم المتقدّمة على عالم الخلوص كاملة ، وإجمال هذه العوالم قد بيّنها الله سبحانه وتعالى في الآية المباركة :

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَـٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِـهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ .[2]

وعليه ، تكون العوالم المتقدّمة على عالم الخلوص أربعة :

الأوّل : **الإسلام** ، الثاني : **الإيمان** ، الثالث : **الهجرة** ، الرابع : **الجهاد في سبيل الله** . ولأنَّ جهاد هذا المسافر هو الجهاد الأكبر لقـوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : **رَجَعْنَا مِنَ الجِهَادِ الأَصْغَرِ إلَى الجِهَادِ الأَكْبَرِ**[3] . فشرط هذا السفر أن يكون إسلام وإيمان المجاهد هما

١ـ الآية ١٢٠ ، من السورة ٦ : الأنعام .

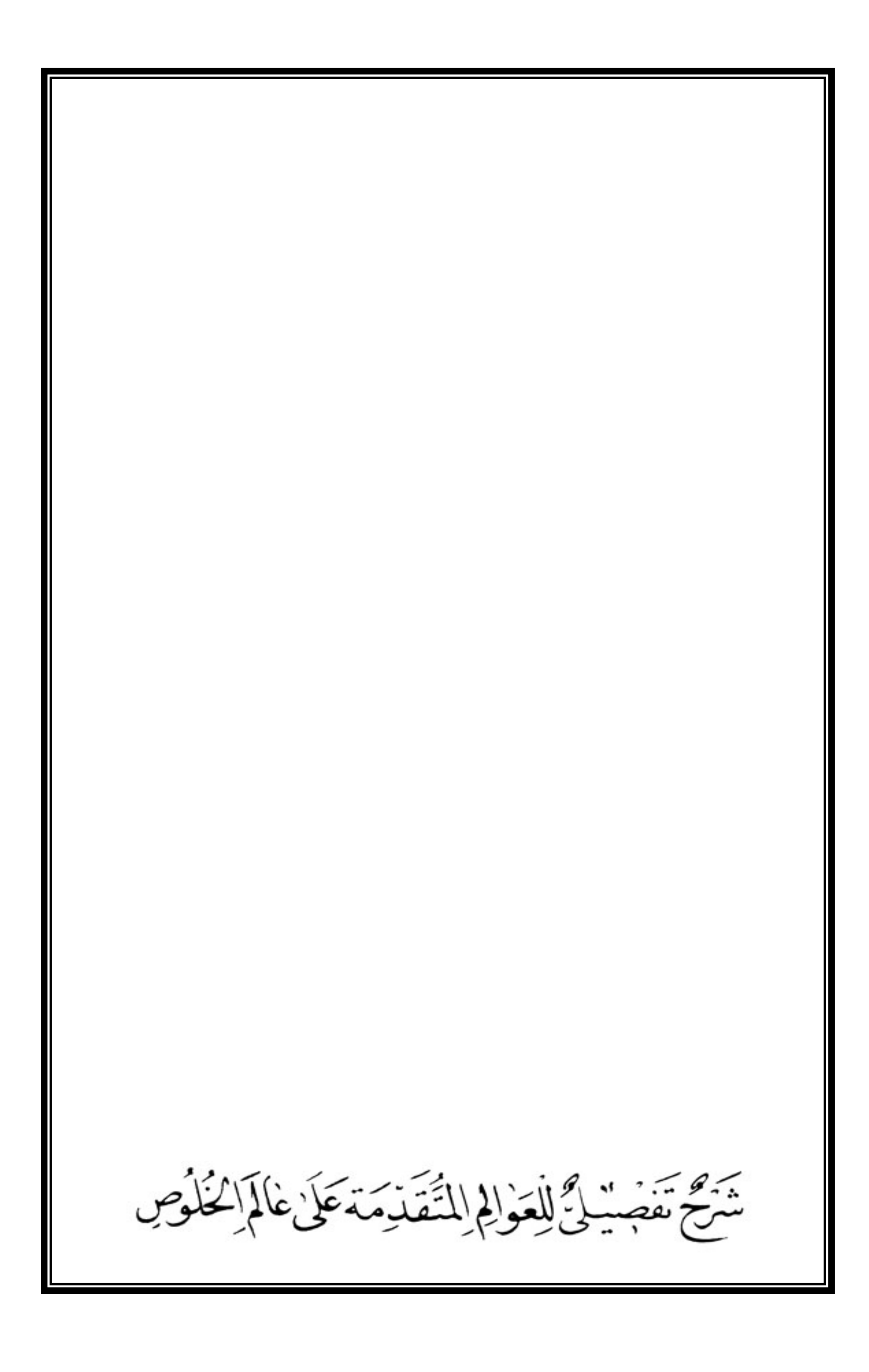
٢ـ الآيات ٢٠ إلى ٢٢ ، من السورة ٩ : التوبة .

٣ـ «رساله سير وسلوك منسوب به بحر العلوم» (= رسالة السير والسلوك المنسوبة إلى بحر العلوم) ص ٥١ إلى ٥٣ .

الإسلام والإيمان الأكبران ، بعدها على السالك أن يُشمّر عن ساعد الهمّة ـ مسترسلاً ـ مع الرسول الباطن ومستعيناً بالرسول الظاهر أو خليفته للهجرة ، وينزل إلى ميدان المجاهدة حتّى ينال فوز القتل في سبيل الله .

وعلى السالك أن يلتفت إلى أنَّ طريقه من بدء مسيره إلى هذه المرحلة من الجهاد كان محفوفاً بالموانع الشيطانيّة والبشريّة ، وأنّه لولا نيله درجة القتل في سبيل الله ما استطاع أن يتخطّى مراحل الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر ليصل ـ بعدها ـ إلى بدء مراحل الإسلام الأعظم والإيمان الأعظم والسفر الأعظم ، والتي يعدّ من موانعها الكفر الأعظم والنفاق الأعظم . وفي هذا الوادي لن يكون لجنود الشيطان أيّ قدرة للنيل منه والغلبة عليه ، فيتصدّى الشيطان (رئيس الأبالسة) بنفسه للوقوف دون إتمام السالك سيره وسلوكه . فلا ينبغي للسالك ـ إن طوى هذه العوالم ـ أن يظنّ أنّه نجى من المخاطر ووصل إلى جوهر المقصود ؛ بل عليه أن يلتفت إلى أنّه ما لم يطو العوالم العظمى السابقة لن يكون بمأمن من حبائل إبليس لمنعه من الوصول إلى المنزل المقصود . فعليه أن يشمّر عن ساعد الهمّة لمنع الشيطان من إيقاعه في الكفر الأعظم والنفاق الأعظم ، ليُهاجر ـ بعدها ـ الهجرة العظمى ، ويتخطّى

بالمجاهدة العظمى قيامة النفس العظمى ، فيدخل في وادي المخلَصين . **رَزَقَنَا اللهُ إن شَاءَ اللهُ تعَالَى .**


شَرْحٌ تَفْصِيْلِيٌّ لِلعَوالِمِ المُتَقَدِّمَةِ عَلى عالَمِ الخُلُوصِ

بناء على ما تقدّم من أنَّ المسافر إلى الله ينبغي له أن يطوي اثنى عشر عالماً قبل الوصول إلى عالم الخلوص ، هي : الإسلام ، الأصغر والأكبر والأعظم . والإيمان ، الأصغر والأكبر والأعـظم . والهجرة ، الصغرى والكبرى والعظمى . والجهاد ، الأصغر والأكبر والأعظم . على السالك أن يعرف خصائص هذه العوالم وآثـارها وعلائمها وموانعها وصوارفها ، وقد بـيّناها هـنا بـنحو الإجـمال ، وتفصيلها موجود في الكتاب المستطاب المنسوب للمرحوم فخر الفقهاء والأولياء **السيّد مهدي بحر العلوم** رضوان الله عليه ، ومن أراد الشرح المفصّل ، فعليه أن يرجع إلى ذلك الكتاب ، لكنّنا هنا ولتوضيح هذه المسألة نبيّنها ببعض الإجمال .

الإسلام الأكبر

عبارة عن التسليم والانقياد المحض ، أي ترك الاعـتراض على الله عزّ وجلّ من جميع الوجوه ، والاعتراف والإذعان بصلاح

كلّ ما هو موجود ومتحقّق، وعدم صلاح ما لم يحدث، وبشكل عامّ رفع اليد عن الاستفسار والسؤال وعدم الشكوى من قضاء الله تعالى، وقد أشار إلى هذه المرتبة مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث المرفوع عن البرقيّ: **إنَّ الإسلَامَ هُوَ التَّسْلِيمُ، والتَّسْلِيمُ هُوَ اليَقِينُ.**

وإضافة إلى ترك الاعتراض، ينبغي أن لا يكون في قلبه أيّ نوع من المؤاخذة على الأحكام التشريعيّة أو التكوينيّة للّه تعالى، كما ورد في قوله تعالى:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[1].

هذه المرحلة هي مرحلة الإيمان الأكبر التي يسري فيها الإسلام الأكبر إلى الروح ويسيطر على القلب.

الإيمان الأكبر

عندما يتنوّر قلب السالك بنور الإسلام الأكبر تعرض عليه من حين لآخر حالة يشاهد فيها ـ علاوة على الإدراك الحسّيّ ـ أنّ كلّ موجود يستند إلى الباري عزّ وجلّ، وبعبارة أُخرى: يجد الله

١ـ الآية ٦٥، من السورة ٤: النساء.

حاضراً في كلّ الأحوال ؛ وهي مرحلة الشهود والإسلام الأكبر ، وما لم تصل هذه الحالة إلى الكمال بحيث تسري إلى جميع أركان البدن وتتصرّف في سائر الأعضاء والجوارح يمكن للموانع المادّيّة والمشاغل والشواغل الطبعيّة أن تصرف السالك عن هذه الحالة وتسلبه ذلك الشهود ليعود إلى الغفلة ، فيجب على السالك أن يقف بعزم راسخ ليرتفع بهذه **الحال** إلى مقام **الملكة** ويوصلها إلى الكمال حتّى لا تستطيع الشواغل الخارجيّة بعدها أن تغيّر مسيره الشهوديّ وتتغلّب على حاله ، فينبغي أن يسري هذا الإسلام من مقام القلب إلى الروح حتّى يتبدّل ذلك الإجمال إلى تفصيل ،وبأمر من الروح تُحيط تلك الحالة بكلّ القوى الظاهريّة والباطنيّة لتصل من الحال إلى الملكة . وهذا المقام هو الذي يُعَبِّر عنه العارفون بمقام **الإحسان** ، كما يقول الله تعالى في كتابه الكريم : **وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ولا يقف تعالى عند ذلك بل يقول : **وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ** .[1]

فإذا لم يصل المجاهد في سبيل الله إلى مرتبة الإحسان لن يستطيع الحصول والوصول إلى سبل الهداية الإلهيّة .

١ـ الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن معنى الإحسان ؛ فأجاب : **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .**

فإلى ذلك الحين الذي لا يكون إسلام السالك الأكبر قد وصل إلى مرحلة الإيمان الأكبر قد تعتري السالك ـ من حين لآخر ـ حالة الإحسان فيؤدّي العبادات بشوق ورغبة وميل شديد .

أمّا عندما يصل إلى **الإيمان الأكبر** فإنَّه ينتقل فيه الإحسان من حال طارئ إلى ملكة المحسنين ، وحينها يؤدّي السالك جزئيّات الأفعال وكلّيّاتها بداعي الميل والشوق بطيب خاطر ، وذاك لأنَّ الإيمان قد سرى إلى الروح ، ولأنَّ الروح سلطان جميع الأعضاء والجوارح وحاكمها ، لذا فإنَّها تحمل الجميع على العمل والمثابرة ، فتنقاد لها سائر الأعضاء بتسليم وإنابة بلا تخلّف ولا اعتراض . قال الله تعالى في حقّ هذه الطائفة :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ .[1]

ثمّ إنَّ الاشتغال بالملاهي لمّا كان ناشئاً من الميل إليها

١ـ الآيات ١ إلى ٣ ، من السورة ٢٤ : المؤمنون .

والرغبة فيها ، وإنَّ السالك المؤمن بالإيمان الأكبر الذي وصل إلى مرتبة الإحسان وملكته ، ليس له أيّ رغبة فيها ؛ لأنّه يعرف أنّه لا يمكن اجتماع حُبَّينِ وشوقينِ في قلب واحد ؛ لقوله تعالى : **مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوفِهِ** ،[1] نعرف بالبرهان الإنّيّ[2] عدم وجود الميل والرغبة الإلهيّة في قلب السالك فيما لو كان له رغبة في الملاهي ، فمثل هذا القلب يكون منافقاً ؛ لأنّه من جانب يظهر الميل والرغبة في الأُمور الراجعة إلى الله تعالى ، ومن جانب آخر يميل ويرغب في اللغو واللهو . وهذا هو النفاق الأكبر الذي يقابل الإيمان الأكبر ، فلا يكون التسليم والإطاعة فيه ناشئينِ من الرغبة والاشتياق الباطني . وإنّما هما نتاج العقل ووليدَي الخوف والمصالح التي تعترض الإنسان ، وإلى هذا النفاق أشار تعالى بقوله :

وَإِذَا قَامُوٓا إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا كُسَالَىٰ .[3]

حينما يصل السالك إلى الإيمان الأكبر لا يكون فيه أيّ

١ـ الآية ٤ ، من السورة ٣٣ : الأحزاب .

٢ـ البرهان الإنّيّ (اصطلاحاً) : هو كشف العلّة والمؤثِّر عن طريق المعلوم والأثر . (م)

٣ـ الآية ١٤٢ ، من السورة ٤ : النساء .

درجة من درجات هذا النفاق ، ولا تكون أفعاله ناشئة ـ بأيّ حال من الأحوال ـ من المدركات العقليّة والمصالح والمنافع الذاتيّة أو الخوف ، بل هي ناشئة من الشوق والمحبّة وبداعي العشق والميل والرغبة .

الهجرة الكبرى

ولأنَّ السالك قد وصل إلى مرتبة الإيمان الأكبر فعليه أن يستعدّ للهجرة الكبرى ، وهي الهجرة بالبدن عن مخالطة أهل العصيان ومجالسة أهل البغي والطغيان وأبناء الدهر الغَرور ، والهجرة بالقلب عن المودّة لهم والميل إليهم ، والهجرة بالبدن والقلب معاً عن العادات والرسوم المتعارفة والاعتبارات التي تمنع السالك عن سلوك طريق الله ، وتكون عائقاً ومانعاً من سفره ؛ لأنَّ العادات والرسوم متاع بلاد الكفر .

ففي المجتمع المادّيّ يتقيّد الإنسان برسوم وعادات وهميّة وخياليّة اعتاد عليها أهل الدنيا ؛ فأصبح قياس النفع وميزان الخسارة والمحاورات والمعاشرات والزيارات مبنيّ عليها ، كما جرت العادة على أن يُنسَبَ إلى الجهل كلّ مَن يلتزم بالصمت في مجالس المذاكرة والمباحثات العلميّة ، أو أن يُتهافت على الجلوس في صدر المجلس باعتباره دليل الكبر والرفعة ، أو اعتبار التقدّم في

الدخول والخروج من المجلس دليل على العظمة ، أو أنَّ التـصنّع والتشدّق في الكلام دليل على المماشاة مع الناس وحسن الخلق ، وخلافه دليل على الحقارة والضعة وضعف المـوقف والشـخصيّة وسوء الخلق .

فيجب على السالك ـ بالتوفيق الإلهيّ والإمداد الرحمانيّ ـ أن يغضّ النظر عن كلّ هذه الأُمور ، وأن يهجر عالم الخيال والوهم ويطلّق هذه العجوز ثلاثاً ، فلا يـخاف ولا يـفزع مـن أيّـة قـوّة ، ولا يهوله مذمّة الناس أو معاتبة من يعدّون أنفسهم من أهل العلم والفضل ، فقد جاء في جامع الكـلينيّ فـي روايـة السكـونيّ عـن الصادق عليه السلام ، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

أَرْكَانُ الكُفْرِ أَرْبَعَةٌ : الرَّغْبَةُ ، وَالرَّهْبَةُ ، وَالسَّخَطُ ، وَالغَضَبُ .

وفسّرت الرهبة هنا بالرهبة من الناس عند مخالفة عاداتهم ونواميسهم الوهميّة . وحاصل الكلام : أنَّ على السالك أن يرفع يده عن جميع التقاليد والعادات والرسوم الاجتماعيّة الاعتباريّة التـي تسدّ الطريق إلى الله . ويعبّر العارفون عن هذا الأمر بـ **الجنون** ؛ لأنَّ المجنون ليس له معرفة برسوم وعادات النـاس ، فـلا يـوليها أيّـة أهميّة ، ولا يبالي بمدح الناس وذمّهم ، ولا يجد الخوف طريقاً إليه عند ترك الناس له أو ثورتهم عليه ولا يغيّر منهجه .

ای دل آن به که خراب از می گلگون باشی
بی زر و گنج به صد حشمت قارون باشی
در مقامی که صدارت به فقیران بخشند
چشم دارم که به جاه از همه افزون باشی
تاج شاهی طلبی گوهر ذاتی بنما
ار خود از گوهر جمشید و فریدون باشی
کاروان رفت و تو در خواب و بیابان در پیش
کی روی ره ز که پرسی چکنی چون باشی
نقطهٔ عشق نمودم به توهان سهو مکن
وزنه چون بنگری از دائره بیرون باشی[1]

١ـ يقول : «جدير بك أيها القلب أن تسكرك الخمرة الحمراء لتحضى بأضعاف مال قارون من مجد بلا كنز أو ذهب.

وأرجو لك منصباً من أرفع المناصب حينما تمنح الرتب إلى الفقراء.

فإن كنت تبتغي تاج إمارة فأبرز معدنك الصافي إن كان يعدل كنز الملكينِ (جمشيد وفريدون) .

رحل السراة وأنت غارق في النوم وأمامك الطريق الطويل فمتى ستشدّ الرحال ومن الذي سيهديك إلى الطريق .

لقد هديتك إلى قطب الغرام فلا تتعامى وإلّا فإنّك إذا ابتعدت ستجد نفسك وحيداً منقطعاً» .

ساغری نوش کن و جرعه بـر افـلاک نشـان
تا بـه چـند از غـم ايّـام جگـر خـون بـاشی[1]

الجهاد الأكبر

وعندما يُوَفَّق السالك ـ بالعناية الإلهيّة ـ للهجرة ، وينتشل نفسه من مستنقع العادات والرسوم ، يضع قدمه في ميدان الجهاد الأكبر حيث محاربة جنود الشيطان ، لأنَّ السالك في هذا الموقع يكون في عالم الطبيعة أسير الوهم والغضب والشـهوة ، وعـرضة للأهواء المتضادّة ، تحيطه أمواج الآمال والأماني ، وتستولي عليه الهموم والغموم ، وتـؤلمه مـنافيات الطـبع والوجـدان ، ويـترقّب المخاوف العديدة ، فتضطرم كلّ زاوية من زوايا صدره ، ويشـعر بالفقر والحاجة وأنواع الآلام والانتقام تهدّد كيانه ، منها ما يخصّ أهله وعياله ، ومنها ما يرتبط بماله وخوفه من تلفه وضياعه ، أو جاه يبتغيه فلا يصل إليه ، فـتوخزه أشـواك الحسـد والغـضب والكـبر والأمل ، ويقع فريسة أفاعي وسباع عالم الطبيعة والمادّة ، فتكدّر قلبه ظلمات الوهم بما لا يعدّ ولا يحصى ، وتتعاقب عليه صفعات الدهر ، وتُدمي أقدامه الأشواك في كلّ موضع وضعها فيه .

١ـ يقول : «فـاحتس الخـمرة واسكب رشـفة عـلى الأفـلاك حـتّى مـتى تحترق ألماً وحزناً على الدنيا».

فكلّ هذه الآلام والأسقام قد تعتري قلب السالك ، وبعد التأمّل والتدبّر يلتفت إلى كثرتها فعلى السالك أن يتغلّب عليها بمنازلة جنود الوهم والغضب والشهوة ، والظفر بعون الله وتوفيقه في هذه المجاهدة العظمى ، متخلّصاً من العوائق والعلائق ،ومودّعاً عالم الطبيعة إلى الأبد .

الإسلام الأعظم

حينها يدخل عالم الإسلام الأعظم حيث يرى نفسه جوهراً فرداً ودُرَّةً يتيمة ، محيطاً بعالم الطبيعة ومصوناً من الموت والفناء ، وخاليّاً من تضارب الأضداد ويُشاهد في نفسه صفاء وضياء وبهاء يتخطّى إدراك عالم الطبيعة ، فالسالك في هذه الحال قد أدرك بموته في عالم الطبيعة حياة جديدة ، ورغم أنّه في عالم الملكوت والناسوت ظاهراً ، فهو يرى الموجودات الناسوتيّة بصور ملكوتيّة ، وكلّ ما يقابله من الأُمور المادّيّة بصوره الملكوتيّة ، ولا يصل للسالك في هذه المرحلة أيّ ضرر ؛ لأنّه قد وصل إلى قيامة النفس الوسطى ، وأزاح الستار عن كثير من الأُمور الخفيّة ، وشاهد كثيراً من الأحوال العجيبة . وهذه المرتبة هي مرتبة الإيمان الأعظم التي ذُكِرَت في القرآن الكريم بشكل واضح :

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى

ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لِيْسَ بِخَارِجٍ مِّـنْهَا كَـذَٰلِكَ زُيِّـنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .[1]

وكذلك قوله تعالى :

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُـؤْمِنٌ فَـلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .[2]

ولا يخفى أنَّ السالك عندئذٍ بالإمكان أن يأخـذه العـجب والأنانيّة من جرّاء ما يشاهده ، وأن يواجهه أعظم الأعداء وأشدّهم قتالاً وهو نفسه ، كما ورد في الحديث :

أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ .

ففي هذه الحال إن لم تتدارك السالك العناية الربّانيّة سوف يبتلي بالكفر الأعظم ، وقد أشاروا إلى هذا الكفر بقولهم : **النَّفْسُ هِيَ الصَّنَمُ الأَكْبَرُ** ، وهذه هي عبادة الأصنام التي التجأ النبيّ إبراهيم عليه السلام إلى الله واستعاذ به منها : **وَٱجْـنُبْنِى وَبَـنِىَّ أَن نَّـعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ .**[3] إذ من الواضح أنّــه لا يـتصوّر تـلك العـبادة للأصـنام المصنوعة في حقّ إبراهيم عليه السلام ، وإنَّما هو يستعيذ بالله من

١ـ الآية ١٢٢ ، من السورة ٦ : الأنعام .

٢ـ الآية ٩٧ ، من السورة ١٦ : النحل .

٣ـ الآية ٣٥ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

ذلك الشرك الذي استعاذ منه الرسول الأكرم صلّى الله عـليه وآله بقوله :

اللَهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشِّرْكِ الخَفِيِّ .

إذن عـلى السـالك أن يـعي مسـتعيناً بـالعون الإلهـيّ بأنـّـه لا شيئ ، وأن يذعن بعجزه وذلّه وعـبوديّته ومـملوكيّته ، وأن يـدع الأنانيّة حتّى لا يقع في أحـضان الكـفر الأعـظم ؛ ليـوفّق بـالتالي للوصول إلى الإسلام الأعظم ، فقد كان بعض العـارفين لا يـتلفّظ بكلمة «أنا» و «نحن» طوال حياته ، وإنّما كان قـوله : جـاء العـبد وذهب العبد . والبعض الآخر منهم كان يفصل بين ما هو مستند إلى الحسن والجمال الإلهيّ فينسبه إلى ذات الحقّ ، وما هو راجع إليه والساحة الإلهيّة المقدّسة بريئة منه فينسبه إلى نفسه ، وما يـمكن إسناده إلى نفسه وإلى الله تعالى يأتي به بصيغة الجمع كنحن ، وهذه الطريقة قد استفادها من قصّة موسى والخضر عليهما السـلام ، إذ يقول الخضر عليه السلام :

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْـبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا .[1]

١ـ الآية ٧٩ ، من السورة ١٨ : الكهف .

فأتى هنا بصيغة المفرد المتكلّم ونسب العيب لنفسه ، لأنَّ العيب لا يسند إلى الذات الإلهيّة .

وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا.[1]

لأنَّ القتل يمكن أن ينسب إلى الله وإلى الخضر لذا جاء به بصيغة الجمع .

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَـٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا.[2]

لأنَّ التوجّه إلى الخير وإرادة الكمال والنفع تستند إلى الذات الإلهيّة ، لذا نسبه إلى الله تعالى ، وهكذا في حديث إبراهيم عليه السلام حيث تبرز هذه الطريقة في الخطاب :

ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ .[3]

١ـ الآيتان ٨٠ و ٨١ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٢ـ الآية ٨٢ ، من السورة ١٨ : الكهف .

٣ـ الآيات ٧٨ إلى ٨٠ ، من السورة ٢٦ : الشعراء .

فهو هنا قد نسب المرض لنفسه والشفاء للّه تعالى . ولا يتمّ الوصول إلى مقام الإسلام الأعظم ، ورفض أنانيّة النفس التي هي محلّ بروز الشيطان وظهوره إلّا بالتوفيق الإلهيّ .

يقول **الحاجّ إمام قلي النخجوانيّ** ، أُستاذ المرحوم **السيّد حسين القاضيّ** والد المرحوم **الحاجّ الميرزا علي القاضي** رضوان الله تعالى عليهم في المعارف ، والذي درس الأخلاقيّات والمعارف الإلهيّة ، وطوى المراتب الكماليّة عند المرحوم **السيّد قريش القزوينيّ** رضوان الله عليه : «حينما صرت كهلاً رأيت الشيطان في الخلسة ، وكنّا واقفينِ على جبل ، فوضعت يدي على لحيتي وقلت له : ها قد أصبحتُ كهلاً وبلغني الكبر ، فهلا تتركني وتذرني وحيداً . فأشار إليَّ بأن أنظر إلى جانبي ، وعندما نظرتُ رأيت وادياً عميقاً جدّاً يبهت العقل من شدّة الرعب ويأخذ بمجامع الإنسان ، ثمّ قال لي : أنا ليس في قلبي أيّ رحمة ومروءة وعطف ، وأنت لو عَلِقتَ في حبالي سوف يكون مكانك في هذا الوادي الذي تراه الآن» .

الإيمان الأعظم

المرحلة التي هي أعلى من الإسلام هي مرحلة الإيمان الأعظم . وهي عبارة عن شدّة ظهور ووضوح الإسلام الأعظم بحيث

يتجاوز العلم والتصديق إلى مرتبة المشاهدة والعيان ، وفيه يرتحل السالك من عالم الملكوت ، فتقوم عليه القيامة النفسيّة الكبرى ، ويدخل إلى عالم الجبروت منتقلاً من المشاهدات الملكوتيّة إلى المعاينات الجبروتيّة .

الهجرة العظمى

بعد هذا على السالك أن يهاجر من وجوده ، ويرفضه مطلقاً ، وهذا هو السفر إلى عالم الوجود المطلق . وإلى هذه المرحلة إشارة في حديث بعض الأعاظم : **دَعْ نَفْسَكَ وَتَعَالَ** . ويشير لها ـ أيضاً ـ قوله تعالى : **فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى** .[1] وإن أتت «وَٱدْخُلِى جَنَّتِى» بعد «فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى» . وخطاب **يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ** هو خطاب للنفس التي فرغت من الجهاد الأكبر ، ودخلت إلى عالم الفتح والظفر الذي هو مقرّ الاطمئنان . ولكن لأنّها لم تفرغ بعد من المجاهدة العظمى ، وما زالت آثارها الوجوديّة باقية ، ولأنَّ غاية الاضمحلال متوقّفة على تحقّق الجهاد الأعظم ، فهي لم تتخلّص بعد من هيمنة التسلّط والقهر ، وهي في مضمار «المليك» و «المقتدر» ، وهما اسمان عظيمان للّه تعالى :

١ـ الآيتان ٢٩ و ٣٠ ، من السورة ٨٩ : الفجر .

فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ .[1]

يجب على السالك بعد هذه المرحلة أن يتغلّب في المجاهدة على الآثار الضعيفة لوجوده ، ويزيل بقاياها المختفية فيه كاملاً ومن الجذور ، حتّى يقدر أن يضع قدمه في بساط التوحيد المطلق ، وهذا العالم هو عالم الفتح والظفر . وبهذا تكون العوالم الاثنا عشر قد طويت ، وهذا الشخص الذي عبر الهجرة العظمى والجهاد الأعظم وصار فاتحاً ومظفّراً سوف يدخل عالم الخلوص ، وقد دخل في مضمار **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ،[2] وقامت بذلك قيامته النفسيّة العظمى ، وتخطّى الأجسام والأرواح وجميع التعيّنات ، مُفنياً ذاته عنها جميعاً ، واضعاً قدمه في عالم اللاهوت ، ليخرج من تحت **كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ** .[3] فمثل هذا الإنسان قد مات بالموت الإراديّ ، ولهذا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله :

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَيِّتٍ يَمْشِي فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

بيان وتوضيح : إنَّ الكمالات التي ذكرت إلى الآن ،

١ـ الآية ٥٥ ، من السورة ٥٤ : القمر .

٢ـ الآية ١٥٦ ، من السورة ٢ : البقرة .

٣ـ الآية ١٨٥ ، من السورة ٣ : آل عمران .

وبُيِّنَت آثارها وعلائمها بالتقريب ، هي فيوضات ـ من جانب ربّ العزّة ـ تختصّ بأُمَّة خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله . فسالكي الأُمم السالفة والشرائع السابقة كانت كمالاتهم محدودة ، حيث كان بمقدورهم أن يشاهدوا أسماء وصفات الربّ فقط ، وذلك بعد حصول الفناء والذوبان ، وما كان يخطر في أذهانهم ما هو أعلى من هذا . وسرُّ ذلك أنَّ منتهى معارفهم كلمة **لَا إِلَهَ إِلَّا اللَهُ** وحاصلها شهود الذات الجامعة لجميع الصفات الكماليّة والجماليّة ، ولكنَّ سالكي أُمَّة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله هم في مرحلة أعلى من هذه بكثير ، وقد ساروا إلى مراحل أبعد لا يمكن بيانها وشرحها ، وسبب ذلك أنَّ جميع التعاليم الإسلاميّة تعود إلى كلمة «**اللَهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ**» .

وبناء على هذا فإنَّ المراحل التي يطويها السالك المسلم سوف تنتهي تلقائيّاً إلى حدّ لا يقبل البيان والوصف ، وذلك لارتباط السلوك بالكلمة المباركة «**اللَهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ**» . لهذا فإنَّ نفس الأنبياء السالفين لم يكونوا يتصوّرون شيئاً فوق مقام شهود الأسماء والصفات الإلهيّة ليُحَلِّقوا بطائر هممهم إلى ذلك العشّ ، ولذلك كانوا يتوسّلون بالولاية المعنويّة والروحيّة ـ للرسول الأكرم وأمير المؤمنين والصدّيقة الطاهرة والأئمّة الأطهار ـ عندما

كانت تحيط بهم البلايا الدنيويّة ، فيجدون الخلاص . وهذا هو مقام الولاية المعنويّة الكبرى الذي كان يدفع الهموم والغموم عن الأنبياء .

وهذا المقام وإن كان معلوماً عندهم إجمالاً ، وعلى أساسه كانوا يتوسّلون بمقامات الأطهار العالية ، ولكنّ كيفيّته وخصائصه بقيت مجهولة لديهم إلى أواخر حياتهم عليهم السلام . نعم يستفاد من القرآن الكريم حصول حالتين للنبيّ إبراهيم عليه السلام ـ لكن لا على نحو الدوام ـ استطاع فيهما أن يشهد الحقائق العالية والفيوضات الكاملة ، وسيتحقّق هذا المقام في المنزل الآخر .

قبل الاستعانة بالقرآن الكريم للاستدلال على هذه القضيّة ، نذكر أنَّ لمقام الإخلاص مراتب تشكيكيّة ، وقد نصّ القرآن على وصول عدّة من الأنبياء لمرتبة الإخلاص ، ومع هذا كلّه هناك مقام أعلى وأعظم لم يصلوه ، وكانوا يتضرّعون إلى الله تعالى بغية الوصول إليه ، كما نجد ذلك في القرآن الكريم حكاية عن النبيّ يوسف عليه السلام الذي كان من المخلَصين : **إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ** ،[1] مع هذا فقد كان يطلب من الله تعالى أن يلحقه بالصالحين :

١ـ الآية ٢٤ ، من السورة ١٢ : يوسف .

أَنتَ وَلِيِّ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ.[1] بناء على هذا لم يكن النبيّ يوسف عليه السلام قد وصل إلى مقام الصلاح، ولهذا كان يطلب اللحوق بالصالحين بعد الموت. ولكن هل استجيبت دعوة يوسف أم لا، وهل سيصل إلى مقام الصلاح يوم القيامة أم لا ؟ هذا ما لم تشر إليه الآيات القرآنيّة التي ذُكرت، ومع أنَّ النبيّ إبراهيم عليه السلام كان له المقام الشامخ في الخلوص، إلّا أنّه كان يقول:

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ.[2]

إذن مقام «الصلاح» الذي كان النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام يدعو الله تعالى أن يلحقه بالواصلين إليه هو أعلى من مقام الخلوص. والله لم يجب دعاءه في الدنيا، بل وعده أن يكون في الآخرة:

وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ.[3]

يجب أن يُعلم أنَّ هذه المرتبة من الصلاح التي تمنّاها

١ـ الآية ١٠١، من السورة ١٢ : يوسف.

٢ـ الآية ٨٣، من السورة ٢٦ : الشعراء.

٣ـ الآية ١٣٠، من السورة ٢ : البقرة.

الأنبياء السابقون هي غير الصلاح الذي أُعطي لإبراهيم وأولاده بنصّ الآية الكريمة :

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ .[1]

لأنَّ هذا الصلاح كان حاصلاً للجميع ، ومن جملتهم النبيّ إبراهيم عليه السلام الذي كان يرجو ـ مع ذلك ـ الوصول إليه ؛ فهذا الصلاح الذي كان يرجوه أعلى من ذلك بكثير .

وأمّا الدليل على أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وعدّة في زمانه قد وصلوا إلى درجة الصلاح، هى الآية الكريمة الناطقة عن لسان الرسول صلّى الله عليه وآله :

إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ .[2]

فالرسول صلّى الله عليه وآله قد أثبت لنفسه ـ في هذه الآية ـ الولاية المطلقة للحضرة الإلهيّة ابتداءً ، ثمّ قال إنَّ وليّي هو الذي يتولّى أُمور الصالحين ، فعُلِم من هذا وجود أفراد من المخلَصين الذين هم في مقام الصلاح في ذلك الزمان ، وأنَّ الله كان متوليّاً لأُمورهم . بناء على ما ذُكر فإنَّ سرّ دعاء الأنبياء السالفين وتوسّلهم بالخمسة المطهّرين أو الأئمّة الأطهار قد اتّضح ، واتّضح

١ـ الآية ٧٢ ، من السورة ٢١ : الأنبياء .

٢ـ الآية ١٩٦ ، من السورة ٧ : الأعراف .

ـ أيضاً ـ مدى علوّهم ، وسموّ منزلة الصلاح فيهم ، بحيث يطلب النبيّ إبراهيم الله عليه السلام من ربّه أن يلحقه بهم .

وللاستدلال على أنَّ الأنبياء العظام قد وصلوا إلى مقام الإخلاص ، يمكن الاستعانة بالآيات الشريفة بعدّة أوجه :

الأوّل : عن طريق حمده وثنائه ، وكما صرّح به القرآن من أنّه سبحانه وتعالى لا يحيط به حدّ ولا يدركه نعت ، ولا يمكن لأحد أن يصفه ويحمده بما يليق بساحة كبريائه إلّا عباده المخلَصين ؛ قال الله عزَّ مِن قائلٍ :

سُبْحَـٰنَ ٱللَهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ إِلَّا عِبَادَ ٱللَهِ ٱلْمُخْلَصِينَ .[1]

ويأمر الله تعالى نبيّه بالحمد ، حيث يقول :

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ .[2]

ويحكي عن حمد إبراهيم عليه السلام :

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ .[3]

١ـ الآيتان ١٥٩ و ١٦٠ ، من السورة ٣٧ : الصافّات .

٢ـ الآية ٥٩ ، من السورة ٢٧ : النمل .

٣ـ الآية ٣٩ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

ويأمر النبيّ نوحاً على نبيّنا وآله وعليه السلام أن يؤدّي الحمد حيث يقول:

فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّـٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ.[1]

الثاني: التصريحات القرآنيّة حول مقام إخلاص بعض الأنبياء العظام، كما ورد في شأن النبيّ يوسف عليه السلام:

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ.

وفي شأن النبيّ موسى بن عمران عليه السلام: **وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا.**[2]

وفي شأن الأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام:

وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ.[3]

الثالث: عن طريق شكرهم لله تعالى، فمن جانب طبقاً للآية الكريمة:

فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ ٱلْمُخْلَصِينَ.[4]

١ـ الآية ٢٨، من السورة ٢٣: المؤمنون.

٢ـ الآية ٥١، من السورة ١٩: مريم.

٣ـ الآيتان ٤٥ و ٤٦، من السورة ٣٨: ص.

٤ـ الآيتان ٨٢ و ٨٣، من السورة ٣٨: ص.

فليس للشيطان من قدرة على قلّة من العباد ، وهم المخلَصون .

ومن جانب آخر طبقاً للآية الكريمة :

ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ .[1]

فالعباد الذين أغواهم الشيطان ما كانوا من الشاكرين .

ومن هنا يتّضح أنَّ أيدي الشيطان لا تصل إلى الشاكرين الذين هم العباد المخلَصون . فإذا وجدنا في القرآن الكريم عباداً يصفهم الله تعالى بصفة الشكر والشاكرين ، نفهم أنّهم من عباد الله المخلَصين ، ومن جملتهم النبيّ نوح عليه السلام ، فقد قال تعالى عنه :

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا .[2]

وقال بالنسبة للنبيّ لوط عليه السلام :

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ .[3]

١ـ الآية ١٧ ، من السورة ٧ : الأعراف .

٢ـ الآية ٣ ، من السورة ١٧ : الإسراء .

٣ـ الآيتان ٣٤ و ٣٥ ، من السورة ٥٤ : القمر .

وقال بالنسبة للنبيّ إبراهيم عليه السلام :

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ .[1]

وبشكل عامّ ، فإنَّ كلّ الأنبياء الذين عُرِفوا بصفة الشكر كانوا من المخلَصين .

الرابع : عنوان الإجتباء ، حيث يصف الله تعالى بعض الأنبياء بهذا الإجتباء :

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .[2]

ويمكن الاستدلال بهذه الآيات الكريمة على مقام إخلاص جميع الأنبياء ، بخلاف طرق الاستدلال السابقة التي استنتجنا منها إخلاص أفراد معدودين ممّن ورد ذكرهم . واستدلالنا هنا يتوقّف

١ـ الآيتان ١٢٠ و ١٢١ ، من السورة ١٦ : النحل .

٢ـ الآيات ٨٤ إلى ٨٧ ، من السورة ٦ : الأنعام .

على أمرين :

الأوّل : عنوان الإجتباء ؛ لأنَّ هذه الكلمة تعني اختيار شيء من بين أشياء متشابهة ، فإذا اختار شخص بعض التفّاحات من صندوق التفّاح ، فإنَّ هذه العمليّة تسمّى إجتباءً . فعندما يقول تعالى في الآية الكريمة **وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ** ، أي اخترناهم من بين جميع المخلوقات والبشر ، وجعلناهم في مكان أو مقام خاصّ بنا ، يتفاوت حكمهم ـ بناء على ذلك ـ عن الآخرين ؛ فهؤلاء أفراد قد اختيروا بتمام المعنى للّه ، فهم تحت إشرافه . ومعلوم أنَّ هذا الإجتباء للّه ينطبق على عنوان الإخلاص ، لأنَّ المخلَصين هم أُولئك الذين كانوا للّه ، وقُطعت نسبتهم كلّيّاً عن جميع الموجودات وتعلّقوا بالحضرة القدسيّة .

الثاني : أنَّ هذا الإجتباء في الآية لا يختصّ بأفراد معيّنين ، وإن كان تعالى قد قال ـ بعد ذكر نوح وإبراهيم وستّة عشر آخرين من الأنبياء وذكر آباءهم وذرّيّتهم وإخوانهم ـ ، إنَّ هؤلاء اجتبيناهم ، وما هو معلوم، أنَّ المراد من إخوانهم ، إخوانهم الروحيّون والأخلاقيّون الذين يساوونهم بالمعارف الإلهيّة والسلوك . وهكذا يستفاد من هذه الآية الإطلاق ، بل العموم ، فيمكن الاستدلال بها على مقام إخلاص جميع الأنبياء .

بعد فهمنا لشرح عوالم السلوك

لإثني عشر، ينبغي البحث في الطريق

وكيفيّة السفر والسلوك. ويوجد بيانان

أحدهما إجمالي وآخر تفصيلي.

الشَّرحُ الإجماليُّ للطَّريقِ وكَيفيَّةِ السُّلوكِ إلى اللهِ

البيان الأوّل : إن أوّل ما يلزم للسالك أن يقوم به هو الفحص والبحث في الأديان والمذاهب ، وبذل ما يمكنه من السعي حتّى يصل إلى مقام توحيد الله المتعال ويدرك حقيقة هدايته ، وإن كان ذلك بصرف الظنّ ومجرّد الترجيح . فبعد التصديق العلميّ أو الظنّيّ يخرج من الكفر ليدخل في الإسلام والإيمان الأصغرين ، والإجماع قائم في هذه المرحلة على أنَّ الاستدلال واجب على كلّ مكلّف . وإذا لم يحصل للمكلّف بعد السعي والبحث أيّ ترجيح ، فعليه أن يشمّر عن ساعد الهمّة ، ومتابعة الإصرار بذرف الدموع والتضرّع والأنين والإبتهال حتّى يفتح له الباب ، كما هو مأثور عن حالات النبيّ إدريس على نبيّنا وآله وعليه السلام ومريديه .

والمراد من الإبتهال والتضرّع هو أن يلتفت الإنسان إلى عجزه ومسكنته ، ويطلب الهداية من صميم قلبه . ومن البديهي أنَّ

الله سبحانه لا يترك عبده المسكين الطالب للحقّ والعاشق للحقيقة دون أن يهديه طريق الخلاص .

وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .[1]

وأذكرُ[2] حينما كنت في النجف الأشرف أنهل من التـربية الأخلاقيّة والعرفانيّة على يد المرحوم الحاجّ الميرزا علي القاضي رضوان الله عليه ، كنت جالساً حين السحر على سجّادة الصلاة ، فاستولى علَيَّ النعاس وشاهدت رَجُـلينِ جـالسينِ مـقابلي ، كـان أحدهما النبيّ إدريس عليه السلام ، والآخر أخـي العـزيز **الحـاجّ السيّد محمّد حسن الطباطبائيّ** الذي يعيش حاليّاً في تبريز ، وفي ذلك الموقف كان النبيّ إدريس عـليه السـلام مـنشغلاً بـالتحدّث معي ، ورغم أنـّه كان المتكلّم إلّا أنـّني كنت أسمع كلامه بواسطة صوت أخي السيّد الطباطبائيّ . وقال لي : «لقد وقعت في حياتي العديد من الأحداث المهولة ، وبالحسابات العاديّة كان تـفسيرها محالاً بل ممتنعاً ، ولكنّها كانت تحلّ أمامي فجأة ، فاتّضح لي أنَّ ذلك بواسطة يد فوق الأسباب والمسبّبات العاديّة من عالم الغيب ،

١ـ الآية ٦٩ ، من السورة ٢٩ : العنكبوت .

٢ـ ٢–الكلام للسيد الطباطبائى (قدس سره)

وكان هذا أوّل انتقال لي ربط عالم الطبيعة بعالم ما وراء الطبيعة وخيط ارتباطنا يبدأ من هنا» .

ففي ذلك الوقت خطر ببالي أنَّ المراد من ابتلاءات النبيّ إدريس عليه السلام هي تلك الصدمات والمشاكل في أيّام الطفولة ، والمقصود أنّه إذا توسّل الإنسان بصدق في مسألة الهداية واستعان بربّه ، سوف يُعينه ويساعده جزماً ، وفي تلك الحال يكون الإستمداد من الآيات القرآنيّة موافقاً لواقع العبد ومؤثّراً فيه ونافعاً له ، قال الله تبارك وتعالى :

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ .[1]

ويكون أيضاً للأوراد المعروفة مثل : **يَا فَتَّاحُ** ، **يَا دَلِيلَ الْمُتَحَيِّرِينَ** ، وأمثالها تأثير عظيم ، ولا يحصل هذا إلاّ بأدائها بالقلب الولهان والحضور والتوجّه الكافيين .

نقل لي أحد أصدقائي بأنّه تشرّف ذات مرّة بزيارة العتبات المقدّسة في كربلاء ، وقال : «انطلقت بنا السيّارة من إيران وإلى جانبي كان يجلس شابّ حليق الذقن تبدو عليه السمنة ، ولهذا لم يجر بيننا أيّ حديث ، وأثناء الطريق إذا بصوته يرتفع فجأة

١ـ الآية ٢٨ ، من السورة ١٣ : الرعد .

بالبكاء والنحيب ، ممّا أثار دهشتي ، فسألته عن سبب بكائه ، فقال لي : إنّني إذا لم أُخبرك فلمن أقول . أنا مهندس مدنيّ ، وقد رُبّيت منذ الطفولة تربية غير دينيّة ،فلم أكن أعتقد بالمبدأ والمعاد ، وإنَّما كنت أشعر أنَّ في قلبي ميلاً ومحبّة للمتديّنين فقط ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيّين أو يهوداً .

وفي يوم كنت في إحدى السهرات الليليّة التي كان يحضرها أكثر رفقائي البهائيّين ، حيث رقصنا ولعبنا ساعات وساعات ، فجأة شعرت في أعماق نفسي بالخجل ، وتضايقت من أفعالي ، واضطررت أن أخرج من الغرفة وصعدت إلى الطابق العلويّ وهناك أجهشت بالبكاء ،ورحت أُردّد في نفسي وأقول : يا ذا الذي إن كان هناك إله فهو أنت ! أدركني ، ثمّ نزلت إلى الحفل الذي كان منتهياً . وفي اليوم التالي كنت عازماً على السفر في مهمّة فنيّة بصحبة رئيس القطار وبعض الشخصيّات ، وفجأة رأيت سيّداً نورانيّاً يقترب منّي ، فسلّم علَيَّ وقال : أُريد أن ألتقي بك . فوعدته بأن أراه غداً بعد الظهر . وبعد ذهابه أخبرني أحد أصدقائي بأنَّ هذا الرجل من السادة الكبار ، فلماذا سلّمت عليه بلا مبالاة ؟ فقلت : لقد ظننت أنّه أتى وسلّم علَيَّ لحاجة له عندي ! وبعدها أمرني رئيس القطار بالسفر في اليوم التالي ، وبالتحديد في الموعد الذي أبرمته

مع السيّد وكلّفني بعدّة أُمور وأعمال . فقلت في نفسي : لن أستطيع بعد هذا أن ألتقي بالسيّد غداً .

في اليوم التالي ـ عندما اقترب موعد العمل ـ أحسستُ بالضعف شيئاً فشيئاً ، واعترتني حمّى شديدة ألزمتني الفراش وأحضروا لي الطبيب ، ممّا أدّى إلى إعفائي من المهمّة التي كلّفت بها في ذلك اليوم . وما إن خرج الرجل الذي أرسله رئيس القطار إلَيَّ ، وتأكّد من مرضي ، إذا بالحمّى تزول عنّي ، وعادت حالتي إلى طبيعتها ، وأحسست بالراحة مجدّداً . حينها أدركت أنّه لابدّ من وجود سرّ في ذلك . فنهضت ثمّ ذهبت إلى منزل ذلك السيّد ، وما إن جلست عنده بدأ يلقي علَيَّ دورة من الأُصول الاعتقاديّة بالأدلّة والبراهين ، بحيث أصبحت مؤمناً . ثمّ كلّفني بعدّة أُمور ، وأمرني بالمجيء إليه في اليوم التالي . ترددتُ عليه عدّة أيّام ، وكنت ـ كلّما جئت إليه ـ أسمع منه أخباري والحوادث التي وقعت في أيّامي الماضية دون زيادة أو نقيصة ، ولم يكن مطّلعاً عليها أحد غيري ، وحتّى نيّاتي التي عزمت عليها ولم أخبر بها أحداً .

ومرّت الأيّام فاضطررت ذات ليلة أن أشترك في سهرة للأصدقاء ، جرّتني إلى طاولة القمار . في اليوم التالي ، عندما دخلت عليه ، قال لي على الفور : ألم تستح وتخجل من ارتكاب

هذه المعصية الكبيرة ، فبدأت دموع الندم تنهمر من عينيَّ ، وقلت له : لقد أخطأتُ ، وأنا أتوب الآن . فقال : ينبغي أن تغتسل غسل التوبة ولا تعد إلى تلك المعصية . فحدّد لي عدّة تكاليف . وباختصار ، غيّرتُ سيرتي وبرنامج حياتي .

ولأنَّ هذه القضيّة حدثت في زنجان ، فعندما أردت الانتقال إلى طهران أمرني بزيارة بعض العلماء هناك ، وفي النهاية أُمِرتُ أن أزور العتبات المقدّسة . وهذا السفر كان بأمر السيّد الجليل» .

قال صاحبي : وعندما اقتربنا من الحدود العراقيّة ، سمعت صوته قد علا بالبكاء ثانية ، فسألته عن السبب . فقال :

«ونحن ندخل أرض العراق ـ الآن ـ رأيت أبا عبد الله عليه السلام يقول لي : مرحباً بكم» .

ومرادي أنّه إذا سار الإنسان في طريق الصدق والصفاء ، وطلب الهداية من ربّه من صميم قلبه ، سوف يوفّق لها ، وإن كان لديه شكّ في التوحيد .

عندما يوفّق السالك في هذه المرحلة ، عليه أن يشمّر عن ساعد الهمّة لتحصيل الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر . وأوّل الأُمور اللازمة في هذه المرحلة تعلّم الأحكام الشرعيّة التي يجب أن يتعلّمها على يد فقيه ، وبعد تحصيل العلم ، عليه أن ينهض لمقام

العمل ويداوم عليه حتّى تزداد معرفته ويرتفع يقينه درجة درجة ؛ لأنَّ العلم يورث العمل والعمل يورث العلم . فلازم الاعتقاد الشديد بالشيء ، العمل به وتطبيقه . وبالبرهان الإنّي نكتشف أنَّ عدم العمل بالشيء يكون نتيجة لعدم جزميّة علمه واعتقاده وإذعانه ، فهو مجرّد صور منتقشة في قوى الخيال .

فالذي يعتقد بالعلم الواقعيّ الحقيقيّ برازقيّة الحضرة الأحديّة المطلقة ، لا يتهالك على تحصيل المال ، بل يقتصر على الكفاف الذي أمر به الشرع ، ويسعى بهدوء البال وسكون الخاطر وبقدر طاقته لتحصيل ذلك المعاش له ولعياله . والذي يجعل نفسه عُرضة للقلق والهموم والغموم من أجل تحصيل المعاش ، ويسعى فوق الحدّ الطبيعيّ له ، يُعلمُ أن لا اعتقاد له بالرازقيّة المطلقة ، وإنَّما يعتقد بالرازقيّة المقيّدة ، بأن يعتبر الله رازقاً فيما لو توفّر هذا المقدار من السعي المجهد ، أو يعتبره رازقاً مقيّداً بامتلاك الثروة أو بإعطاء المال آخر الشهر إلى غير ذلك من القيود . بناء على هذا ، يكون الاضطراب الخارجيّ أو الداخليّ حاكياً عن عدم العلم بالرازقيّة ، أو بكونها مقيّدة . وهذا هو معنى وراثة العلم للعمل . وأمّا مثال وراثة العمل للعلم : أنَّ الإنسان إذا قال بصدق :

سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى وَبِحَمْدِهِ .

سوف يتحسّس الذلّ ، وبديهيّ أنَّ الذلّ لا يتحقّق بدون العزّ ، فالذليل دائماً في مقابل العزيز والمقتدر ؛ إذن لا يجد مناصّاً من التوجّه إلى مقام العزّة المطلقة ، ثمّ يفهم أنّه لابدّ مع هذه العزّة من علم وقدرة أيضاً ، وهكذا . فمن هذا العمل البسيط ـ الذي هو ذكر يتلى حال السجود ـ يطّلع على العزّة المطلقة والعلم المطلق والقدرة المطلقة للّه تعالى . وهذا هو معنى أداء العمل للعلم ، وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : **وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعَهُ** .

فينبغي له أن يبادر بنشاط للأعمال الواجبة ، ويجدّ في ترك المحرّمات ؛ لأنَّ سلوك طريق الله يتنافى مع ترك الواجب وارتكاب المحرّم . وبمراعاة هذين الأمرين تسير جهود السالك وأتعابه في طريق الصلاح ، وإلّا فما هي فائدة الزينة مع تلوّث البدن ، كذلك الأعمال المستحبّة والرياضات الشرعيّة لن تكون مثمرة مع تلوّث القلب والروح . فليجدّ السالك في ترك المكروهات ، وأداء الأعمال المستحبّة ؛ لأنَّ حصول مرتبة الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر تتوقّف على الأعمال ، باعتبار أنَّ لكلّ عمل خاصيّة تختصّ به تؤدّي إلى تكميل الإيمان ، وإلى هذا المعنى أُشير في حديث محمّد بن مسلم :

الإيمانُ لا يَكُونُ إلَّا بالعَمَلِ ، والعَمَلُ مِنهُ ، ولا يَثبُتُ

الإيمانُ إلَّا بالعَمَلِ .

لهذا على السالك أن يؤدّي كلّ عمل مستحبّ ولو مرّة واحدة ، حتّى يجد حظّه الإيمانيّ من ذلك العمل ، كما جاء في أحاديث أمير المؤمنين عليه السلام إنَّ الإيمان الكامل ينشأ من العمل ، إذن على السالك إلى الله أن لا يتوانى أثناء السير إلى منزل الإيمان الأكبر عن القيام بالأعمال المستحبّة . وبديهيّ أنّه بالمقدار الذي يتسامح ويتساهل في أداء الأعمال المستحبّة ينقص إيمانه بذلك المقدار ؛ لهذا إذا قام السالك بتطهير يده ولسانه وسائر أعضائه وجوارحه ، وأدّبها ـ بتمام معنى الكلمة ـ بالأدب الإلهيّ ، ولكنّه لم يجاهد نفسه في مقام الإنفاق وبذل الأموال ، لن يكتمل سلوكه الإيمانيّ ، بل يسير إلى النقص ، ويكون ذلك النقص مانعاً له من الارتقاء إلى المقام الأعلى . بناء على هذا ينبغي أن يعطي كلّ عضو من أعضائه حظّه الإيمانيّ حتّى تحصل له حالة الإيمان ، كأن يشغل القلب الذي هو أمير البدن بالذكر والفكر ، فالذكر : عبارة عن تذكير القلب بأسماء وصفات حضرة الباري تعالى شأنه ، والفكر عبارة عن توجيه القلب إلى الآيات الآفاقيّة والنفسيّة ، وينبغي التأمّل والتدقيق في صنعها وسيرها حتّى يرتوي قلب الإنسان من منبع الإيمان بواسطة هذين العملين .

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ.[1]

وبعد أن ينال كلّ عضو من الأعضاء حظّه الإيمانيّ، يجب أن يبدأ بالمجاهدة، وبها يكمل نقصان الإسلام الأكبر والإيمان الأكبر، ويبتعد عن حالة الشكّ والظنّ ليصل إلى اليقين.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ.[2]

وتكون نتيجة المجاهدة ـ إضافة إلى ورود الصراط المستقيم ـ الأمن والحفظ من حبائل الشياطين.

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.[3]

الخوف، عبارة عن الحذر وترقّب ما لم يقع بعد، مع كون المترقّب مورد إزعاج الإنسان وقلقه. والحزن، عبارة عن الهمّ والغمّ من أمر غير ملائم وغير مقبول قد وقع. هذان الأمران ليس لهما طريق إلى السالك، لأنّه قد جعل عمله كلّه للّه، وليس له مقصود سوى الله، فهو لا يحزن لأمر قد فات، ولا يخاف من شيء مترقّب، فهنا اليقين الذي وصف الله تعالى ذويه

١ـ الآية ٢٨، من السورة ١٣: الرعد.

٢ـ الآية ٨٢، من السورة ٦: الأنعام.

٣ـ الآية ٦٢، من السورة ١٠: يونس.

بالأولياء . ويشير إلى ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام :

أَبْصَرَ طَرِيقَهُ ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ ، وَعَرَفَ مَنَارَهُ ، وَقَطَعَ غِمَارَهُ ، فَهُوَ مِنَ اليَقِينِ عَلَى مِثْلِ ضَوْءِ الشَّمْسِ .

ويقول أيضاً :

هَجَمَ بِهِمُ العِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ البَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رُوحَ اليَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا مَا اسْتَوْعَرَهُ المُتْرَفُونَ ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالمَحَلِّ الأَعْلَى .

ففي هذه المرحلة بالذات تُفتَح له أبواب الكشف والشهود .

ومن البديهيّ أنَّ طيّ هذا المنزل لا يتنافى مع كون السالك في الدنيا منشغلاً بأُموره الضروريّة ، ولا علاقة لفيوضاته القلبيّة بالأوضاع الخارجيّة من النكاح والتكسّب والتجارة والزراعة وأمثالها ، وفي الوقت الذي يكون السالك بين الناس منشغلاً بأُمور الدنيا ، تكون روحه سائرة تشارك الملكوتيّين أسرارهم ، مَثَلُ هذا الإنسان مثل من تنزل عليه المصيبة بفقدان عزيز ، فهو في حال المصيبة بين الناس يتكلّم معهم ويجالسهم ويأكل وينام ، أمّا في أعماقه فهناك البحر الهائج وأمواج الخواطر المتلاطمة التي تذكّره بالمحبوب ، كلّ من ينظر إلى وجهه يرى آثار المصيبة .

وسالك طريق الله له حين الاشتغال بالأُمور الدنيويّة ألوان من الارتباطات والاتّصالات مع ربّه ، يموج في قلبه بحر من الشوق ، وفي كيانه تتوقّد نيران العشق ، وتذيب فؤاده حرق الفراق والهجران ، ولا يعلم عن هذا البركان المتفجّر في أعماقه أحد سوى الله ، ولكن من ينظر إلى وجهه يعلم إجمالاً أنَّ عشق الله وعبادة الحقّ والتوجّه إلى الحضرة المقدّسة قد فعل به ما فعل .

من هذا البيان يُعلم أنَّ التضرّع والمناجاة والابتهال الذي كان للأئمّة الأطهار ـ كما ورد في أدعيتهم المأثورة ـ لم يكن تصنّعاً ، أو لأجل إرشاد الناس وتعليمهم ، فهذا التوهّم ناشئ من الجهل وعدم إدراك الحقائق ، لأنَّ شأنهم عليهم السلام أجلُّ ومقامهم أشرف من أن يظهروا بيانات دون أن يكون لها معنى أو حقيقة ، أو يدعوا الناس إلى الله بالأدعية والمناجاة الكاذبة ، فهل يمكن القول إنَّ كلّ هذا الأنين والتضرّع والهيام لمولى الموالي أمير المؤمنين والإمام السجاد عليهما السلام لم تكن في الواقع حقيقيّة بل كان فيها شيء من التصنّع أو التعليم ؟ حاشا وكلّا ، فهذه الطائفة من أئمّة الدين سلام الله عليهم باعتبارها اجتازت مراتب السلوك ، ودخلت حرم الله ووصلت إلى مقام البقاء بعد الفناء الذي هو مقام البقاء بالمعبود ، فحالهم جامع بين عالمي الوحدة

والكثرة ، ويراعون نور الأحديّة على الدوام في مظاهر عوالم الإمكان والكثرات الملكيّة والملكوتيّة ، ولامتلاكهم عليهم السلام هذه الدرجة السامية من الكمالات ، فإنّهم دائماً يراعون لوازم عالم الملك والملكوت ، فهم لا يتسامحون في أصغر أو أدنى حكم من الأحكام أو أدب من الآداب أو حال من الأحوال المتناسبة مع هذه العوالم ، وفي نفس الوقت تراهم يحتفظون بتوجّههم الخاصّ إلى العوالم العالية ، ولهذا سُمُّوا بالموجودات النوريّة .

أجل ؛ وبعد أن وفّق السالك وطوى هذه العوالم وتغلّب على الشيطان ، سوف يدخل عالم الفتح والظفر ، ويصل إلى مرحلة طيّ العوالم اللاحقة . فالسالك حينها يكون قد طوى عالم المادّة ، ودخل في سلك عالم الأرواح ، ومن هنا يبتدئ سفره الأعظم ، أي السفر من عالم النفس والروح ، والانتقال من دولة الملكوت إلى مملكة الجبروت واللاهوت .

كيفيّة السير فى هذا الطريق بعد البيعة مع الشيخ العارف ، و وليّ الله الذى اجتاز مقام الفناء ووصل إلىمقام البقاء بالله و المطّلع على المصالح و المفاسد والمنجّيات و المهلكات ، والمتمكّن من توّلى زمام أُمور تربية السالک ، و هدايته إلى كعبة المقصود ـ عبارة عن الفكر والذكروالتضرّع والإبتهال إلى الله قاضى الحاجات ، و من الطبيعىّ أن يكون سفره فى هذه المنازل متعلقاً بأُمور عديدة ينبغى أن تراعى جميعها بنحو أحسن و أكمل .

الأوّل : ترك العادات والرسوم والمجاملات

والابتعاد عن الأُمور الاعتباريّة التي تمنع السالك من طيّ الطريق . والمقصود أن يعيش السالك بين الناس بنحو الاعتدال . فالمجتمع يحتوى على طائفة من الناس قد غرقت في المراسم الاجتماعيّة ، لا همّ لها سوى جلب الأصدقاء والخلّان ، ولا تبخل بأيّ شكل من أشكال المجاملة والزيارات المضرّة أو التي ليست لها فائدة حفاظاً على شخصيّتها ومقامها الخاصّ ، وتتكلّف العادات والتقاليد التي تحفظ لها حُسن الظاهر ، تاركة صميم الحياة لحفظ هامشها ، جاعلة المعيار في التقبيح والتحسين آراء عوامّ الناس ، واصفة الحياة والعمر في معرض التلف والهلاك حتّى صارت سفينة وجودهم لعبة تتقاذفها الأمواج المتلاطمة للرسوم والعادات المفتعلة ، فأينما سارت الأمواج بآداب العوامّ وأخلاقيّاتهم سارت معها ، فاقدة للإرادة قبال المجتمع ، منساقة

انسياق العبيد .

وفي المقابل هناك طائفة أُخرى اعتزلت الجماعة ، وابتعدت عن كلّ نوع من العادات والآداب الاجتماعيّة ، وتنصّلت من الاجتماعيّات ، فلا معاشرة ولا مزاورة لهم مع الناس ، وبقي أصحابها كذلك حتّى عرفوا بالمنزوين .

ولكي يتمكّن السالك من الوصول إلى المقصد ، عليه أن يختار طريق الاعتدال بين هذين المسلكين ، ويتجنّب الإفراط والتفريط ، ويسير على صراط مستقيم ، وهذا الأمر لا يحصل إلّا بمراعاة المقدار الذي تقتضيه الضرورة في مجال المعاشرة ومزاولة المجتمع ، نعم لو حصل امتياز قهريّ بين السالك وغيره على أثر اختلاف كميّة المعاشرة أو كيفيّتها ، فإنَّ هذا الأمر لن يكون مضرّاً ، وبالطبع فإنَّ مثل هذا الاختلاف ليحصل ، فالمعاشرة لازمة وضروريّة ، ولكن لا إلى الحدّ الذي يجعل السالك نفسه تابعاً لأخلاقيّات الناس ، **وَلَا يَخَافُونَ** [فِي اللَهِ] **لَوْمَةَ لَآئِمٍ** ،[1] هذه الآية تحكي عن مدى ثباتهم على هذا النهج المستقيم ، وتصلُّبهم في رأيهم ومسلكهم .

١ـ الآية ٥٤ ، من السورة ٥ : المائدة .

وبشكل عامّ ، يمكن أن نقول إنَّ على السالك أن يقيس ويحدّد النفع والضرر في كلّ أمر اجتماعيّ ، ولا يجعل نفسه تابعاً لآراء الناس وأهوائهم .

الثاني : العزم

ما أن يضع السالك القدم الأُولى في ميدان المجاهدة حتّى تنصبّ عليه الحوادث الشديدة والبلاءات من جانب الناس والمعارف ، أُولئك الذين لا يتّبعون سوى هوى النفس والرغبات الاجتماعيّة ، يعاتبونه ويوبّخونه بالقول والعمل لكي يبتعد عن وجهته ومقصده ، وهذا الاختلاف في نمط الحياة والسلوك فيما بينه وبين الناس يؤدّي إلى تخوّفهم ، فيسعون بكلّ وسيلة ممكنة أن يحرفوا السالك المبتدئ، موجّهين له سياط اللوم والتوبيخ لإمالته عن الطريق وهكذا .

فإنَّ السالك سوف يواجه في كلّ منزل من منازل السفر مشكلة جديدة يبدو أنـّها لا يمكن دفعها إلّا بالعزم والصبر ، لذا عليه أن يطلب من الله المدد والقوّة حتّى يصمد أمام كلّ هذه المشاكل ويزيلها بسلاح الصبر والتوكّل ، وبالالتفات إلى عظمة المقصد عليه أن لا يسمح للخوف مجالاً أمام هذه العواصف الهوجاء التي هي عوائق طريق الله وموانعه .

وَعَلَى ٱللَهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ[1] ـ **وَعَلَى ٱللَهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ**.[2]

الثالث : الرفق والمداراة

وهي من أهمّ الأُمور التي ينبغي أن يراعيها السالك إلى الله ، لأنَّ أدنى غفلة في هذا الأمر تكون ـ إضافة إلى منعه من السير والترقّي ـ سبباً كلّيّاً في انقطاع السفر . فالسالك يجد في نفسه في بداية السفر حماساً وشوقاً زائداً على الحدّ المترقّب من أمثاله ، بل تلازمه تلك الحال أثناء السفر وحين ظهور التجلّيات الصوريّة الجماليّة حيث يحسّ في نفسه بالعشق والشوق الكثير ، فيعزم على أداء الأعمال العباديّة الكثيرة ، فتراه يقضي معظم أيّامه في الدعاء والندبة مقتفياً كلّ عمل ، ومتعلّماً من كلّ شخص كلمة ، ومتناولاً من كلّ غذاء روحي لقمة . إلّا أنَّ هذا الأُسلوب من العمل ليس مفيداً فحسب ، بل يؤدّي إلى الخسران ، لأنّه على أثر تحميل النفس أعمالاً ثقيلة تأتي النتائج معاكسة ، وبالتالي تتراجع النفس إلى الوراء ، ويعود السالك بعد ذلك خالي اليدين ، ويفقد الرغبة والميل للقيام بأدنى عمل مستحبّ .

١ـ الآية ١٦٠ ، من السورة ٣ : آل عمران .

٢ـ الآية ١٢ ، من السورة ١٤ : إبراهيم .

وسرّ هذا الإفراط والتفريط هو أنَّ السالك قد جعل الذوق والشوق المؤقّتين ميزاناً لأداء الأعمال المستحبّة ، وحمّل النـفس عبئاً ثقيلاً ، ولمّا انتهى هذا الشوق المؤقّت ، وخمد لهيبه المتأجّج ، ضجرت النفس من هذه الأحمال الثقيلة ، وألقت عصى الترحال في البداية أو أثناء الطريق ، واشمأزّت من السفر ،وتتبرّأ من معدّاته وممّلاته . إذن على السالك أن لا يسقط في فخّ الشوق المؤقّت ، بل عليه أن يقيس بدقّة مدى استعداده وحالته الروحيّة ووضعيّة عمله وأشغاله ومقدار قابليّته للتحمّل ، وينتخب العمل الذي يمكنه أن يداوم عليه على أن يكون أقلّ من مقدار ومدى استعداده ، مكتفياً به ومزاولاً له حتّى ينال حظّه الإيمانيّ من هذا العمل .

وبناء على هذا فالسالك يشتغل بالعبادة طالما وجد في نفسه الميل والرغبة ، ويقلع عنها مع بقاء الشوق لها حفاظاً عـلى هـذه الرغبة وهذا الميل ، وبالتالي يرى نفسه دائم الظمأ للعبادة . فمثل السالك الذي يريد أن يؤدّي العـبادات كـمثل الذي يـريد تـناول الغذاء ، عليه أوّلاً أن ينتخب الغذاء الذي يلائم مزاجه ، ثمّ يدعه قبيل الشبع لتبقى فيه الرغبة والميل دائمين . وإلى هذا الأمر إشارة في حديث الإمام الصادق عليه السلام مع عبد العزيز القراطيسيّ :

يَا عَبْدَ العَزِيزِ ! إنَّ لِلإيمَانِ عَشْرَ دَرَجَـاتٍ بِـمَنْزَلَةِ السُّـلَّمِ

يُصْعَدُ مِنْهُ مِرْقَاةً بَعْدَ مِرْقَاةٍ ـ إلى أن قال عليه السلام ـ **وَإذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنْكَ بِدَرَجَةٍ فَارْفَعْهُ إلَيْكَ بِرِفْقٍ ، وَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَيْهِ مَا لَا يُطِيقُ فَتَكْسِرَهُ .**

إجمالاً ، يتبيّن أنَّ العبادة المؤثّرة في السير والسلوك هي تلك العبادة التي تنشأ من الرغبة والميل ، وإلى هذا المعنى أشار عليه السلام :

وَلَا تُكْرِهُوا عَلَى أَنْفُسِكُمُ العِبَادَةَ .

الرابع : الوفاء

وهو عبارة عن عدم العود إلى ما تاب عنه ، وعدم ، التقصير في أداء ما عاهد نفسه على القيام به ، وأن يترك ما عاهد عليه شيخه ومربّيه العارف في طريق الحقّ حتّى آخر الأمر .

الخامس : الثبات والمثابرة

وتوضيح هذا المعني يحتاج إلى ذكر مقدّمة : فالمستفاد من الأخبار والآيات أنَّ الذي ندركه بحواسّنا من الذوات الخارجيّة ، والذي نؤدّيه في الخارج من الأفعال ويكون له تحقّق في عالم المادّة ، له حقيقة في ما وراء هذه التجسّمات الخارجيّة المادّيّة الجسمانيّة ، وما وراء هذه الظواهر والمحسوسات حقائق عالية المرتبة مجرّدة من لباس المادّة والزمان والمكان وسائر عوارضها ،

وعندما تتنزّل هذه الحقائق من مقامها الواقعيّ تتجسّم وتتمثّل بهذه الصور المادّيّة المدركة في عالم الخارج، وتصرّح بذلك الآية القرآنيّة المباركة:

وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ.[1]

وتفسيرها ـ مجملاً ـ هو أنَّ الذي يتحقّق في عالم المادّة عموماً قد كان له قبل تحقّقه الخارجيّ حقيقة أُخرى عارية عن لباس التقدير والحدّ، لكنّه في حال النزول والتنزيل يتحدّد ـ وفقاً لعلم الباري تعالى ـ بدرجات معيّنة، ويقدّر بالتقديرات الإلهيّة.

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ.[2]

ثمّ إنَّ الصور الخارجيّة لمّا كانت محدّدة ومملوءة بالعوارض المادّيّة من الكون والفساد فهي لعبة بيد الفناء والزوال والنفاد: **مَا عِندَكُمْ يَنْفَدُ**، لكنَّ تلك الحقائق العالية المعبّر عنها بالخزائن لها وجهة التجرّد والملكوتيّة ولا يترتّب عليها سوى الثبات والدوام والكلّيّة: **وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ**، وإلى هذا المعنى وإلى

١ـ الآية ٢١، من السورة ١٥: الحجر.

٢ـ الآية ٢٢، من السورة ٥٧: الحديد.

هذه الحقيقة أُشير في الحديث المتّفق عليه بين الفريقين :

نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ .

وهذا الحديث راجع إلى جهة بيان كيفيّات الحقائق لاكميّاتها ، ومدلوله : أنّنا معاشر الأنبياء ـ دائماً ـ ننزّل الحقائق العالية ونبيّنها بحسب فهم وإدراك السامع ، لأنَّ العقول البشريّة ـ بسبب انشغالها بزخارف الحياة وأمانيها الفارغة وآمالها البعيدة ـ قد تكدّرت فلا تستطيع أن تدرك تلك الحقائق بنفس الدرجة من الصفاء والواقعيّة التي هي عليها . لهذا فالأنبياء العظام هم كمن يريد أن يبيّن للأطفال حقيقة ما ، يضطرّون إلى التعبير عنها بما يتناسب مع القوى الإدراكيّة والحسيّة للطفل . وكم عبّر الأنبياء العظام بواسطة مقام الشرع والشريعة (وهم حماتها) عن هذه الحقائق الحيّة بتعابير قد توحي إلى أنَّ هذه الحقائق تفقد الحسّ والشعور ، والحال أنَّ كلّ واحدة من هذه الظواهر الشرعيّة من صلاة وصوم وحجّ وجهاد وصلة رحم وصدقة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر و ... لها حقائق حيّة ذات شعور وإدراك .

والسالك هو من يريد أن يزيل ـ بخطى السلوك والمجاهدة ، وبعون الله وتوفيقه ـ كدورة وحجاب النفس والعقل

في ظلّ ذلّ العبوديّة والانكسار والتضرّع والابتهال ، ليشاهد ـ بالعقل الظاهر والنفس المضيئة النورانيّة الصافية من الأغلال والشوائب ـ تلك الحقائق العالية في هذه النشأة المادّيّة والعالم الظلمانيّ . وكثيراً ما يتّفق للسالك أن يشاهد كلًّا من الوضوء والصلاة بصورته الواقعيّة ويرى مقدار تفاوتها مع صورته الجسمانيّة الخارجيّة بآلاف المراتب من حيث الشعور والإدراك . كما وردت في أحاديث الأئمّة الأطهار عليهم السلام مطالب قيّمة ونفيسة حول تلك الصورة المثاليّة للعبادات في عالم البرزخ والقيامة ، وتكلّم الإنسان معها ، كما وردت في مسألة نطق الجوارح والسمع والبصر في القرآن الكريم . فالمسجد ليس هو ذلك البناء الحجريّ ، بل هو واقعيّة حيّة ومدركة وشاعرة ، كما جاء في الأخبار حول شكاية القرآن والمسجد إلى ربّهما يوم القيامة .

يروى أنَّ أحد المساكين كان يوماً طريح الفراش ، وأثناء تقلّبه على فراشه سمع أنيناً من الأرض ، فلمّا استعلم عن السبب ، أدرك أو قيل له إنَّ هذا الأنين من الأرض إنّما كان لفراقك .

بعد هذه المقدّمة نقول : إنَّ على السالك أن يثبت في نفسه من خلال الاستمرار والمداومة على الأعمال تلك الصور الملكوتيّة المجرّدة حتّى يرتقي من الحال إلى مقام الملكة . وعليه ـ بواسطة

تكرار كلّ عمل ـ أن يحصّل حظّه الروحانيّ والإيـمانيّ مـن ذلك العمل ، فما لم يحصل لديه هذا المعنى لا يـترك العـمل . وهـذه الجهة الملكوتيّة الثابتة للعمل إنّما تحصل عـندما يـثبت السـالك ويداوم على العمل حـتّى تـترسّخ الآثـار الثـابتة للأعـمال الفـانية الخارجيّة في أُفق النفس وتتحجّر بحيث لن تكـون بـعد التـثبيت والاستقرار قابلة للرفع .

إذن يجب على السالك أن يسـعى لانـتخاب العـمل الذي يطابق ويناسب استعداده ، فما عرف من نفسه عدم الاستمرار عليه لا يختاره ، لأنـّه عند ترك العمل سـوف تـقف حـقيقته وواقـعيّته للمخاصمة ، فتجمع آثارها وتـرحـل بـها ، فـتظهر حـينئذٍ الآثـار المضادّة للعمل في النفس ، نَعوذُ بالله .

ومعنى المخاصمة أنَّ السالك لمّا ترك العمل ارتدَّ عن هذا العمل وابتعد عنه ذاهباً بآثاره وخصائصه معه ، ولأنَّ ذلك العمل كان عملاً نورانيّاً وخيراً ، فعندما تخلو ناحية من النفس من تلك الآثار النورانيّة ، لا مفرّ من أن تحلّ محلّها آثاره المضادّة من الظلمة والكدورة والشرور ، والحقيقة أنـّه **لَا يُوجَدُ عِندَ اللَـهِ إلَّا الخَـيْرُ . وَأَمَّا الشُّرُورُ وَالقَبَائِحُ وَالظُّلُمَاتُ فَإنَّمَا هِيَ مِنْ أَنْفُسِنَا** .

بناء على هذا فإنَّ كلّ عيب أو نقص يظهر يكون من قبل

أفراد البشر ، **وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ** ، وعلى هذا الأساس يتّضح أيضاً أنّ الفيوضات الإلهيّة ليست خاصّة بفرد دون فرد ، بل إنَّها تتّجه من الصقع الربوبيّ ومقام الرحمة اللامتناهية بنحو غير متناهٍ إلى عموم أبناء البشر من المسلم واليهوديّ والنصرانيّ والمجوسيّ وعبَدَة النار والأصنام ، لكنَّ الخصوصيّات الموجودة في قابليّاتهم ـ بسوء اختيارهم ـ تصير سبباً لأن تكون هذه الرحمة الواسعة عند البعض باباً للسرور والبهجة ، وعند البعض علّة لإيجاد الغمّ والحزن .

السادس : المراقبة

وهي أن يكون السالك في جميع الأحوال مراقباً ومنتبهاً لا يتجاوز تكليفه ، ولا يتخلّف عمّا عزم عليه .

والمراقبة معنى عامّ ، فهي تتفاوت باختلاف مقامات ودرجات السالكين ومنازلهم . ففي بداية السلوك تكون المراقبة عبارة عن اجتناب ما لا يتماشى مع دين السالك ودنياه ، والابتعاد عمّا لا يعنيه ، والسعي لئلّا يصدر منه ما يسخط الله في القول والفعل ، ولكن شيئاً فشيئاً تشتدّ هذه المراقبة وترتقي درجة فدرجة ، فقد تتمثّل في التوجّه والانتباه إلى سكوته أو إلى نفسه ، وقد ترتقي فتكون عبارة عن التوجّه لمراتب حقيقة الأسماء والصفات الكلّيّة الإلهيّة . وسوف نبيّن إن شاء الله مراتبها

ودرجاتها .

وليُعلَم أنَّ المراقبة من أهمّ شروط السلوك ، وقد أكّد عليها المشائخ العظام ، بل قد عدّها الكثير منهم من اللوازم الحتميّة للسير والسلوك ، لأنّها بمنزلة الحجر الأساس ، فالذكر والفكر وسائر الشروط الأُخرى مبنيّة عليها ، فإذا لم تتحقّق المراقبة لا يكون للذكر والفكر أيّ أثر . والمراقبة بمنزلة اجتناب المريض عن الغذاء اللامناسب ، والذكر والفكر بمنزلة الدواء ، فما لم يبتعد المريض عمّا لا يناسبه من الطعام ، يعود الدواء بلا أثر ، بل قد يؤدّي إلى نتيجة عكسيّة ، لهذا فإنَّ الأساتذة العظام ومشائخ الطريقة منعوا عن الذكر والفكر دون المراقبة ، وهم ينتخبون الذكر والفكر حسب درجات السالك .

السابع : المحاسبة

وهي عبارة عن اتّخاذ وقت معيّن في الليل والنهار يقوم خلاله بمحاسبة نفسه عن كلّ ما عمله في ليله ونهاره . وإلى هذا الأمر إشارة في حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في قوله : **لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُحَاسِبْ نَفْسَهُ كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً** . فإذا تبيّن له أنّه قد أخطأ ، فعليه أن يستغفر ، وفي حال عدم الخطأ يجب أن يشكر الله تعالى شأنه .

الثامن : المؤاخذة

وهي عبارة عن تأديب النفس بعد صدور الخيانة منها ، وينبغي أن يكون ذلك حسب مقتضى الحال .

التاسع : المسارعة

بأن يسارع إلى فعل ما قد عزم عليه ، فطريق السالك تحفّه الآفات ، ويقف في كلّ مقام منه مانع ، فينبغي أن يكون السالك حاذقاً وواعياً جدّاً ، فيؤدّي تكليفه ووظائفة قبل أن يحول دونها المانع ويلوّث ساحته ، فلا يضيّع دقيقة واحدة في سبيل الوصول إلى المقصد .

العاشر : الحبّ

حبّ صاحب الشريعة وخلفائه بالحقّ ، فينبغي أن يُخلص في هذه المحبّة بحيث لا يكون فيها أيّ غشّ ، ويصل في هذه المرحلة إلى حدّ الكمال ، لأنَّ للمحبّة مدخليّة عظيمة في التأثير على الأعمال ، وكلّما كانت المودّة أكثر وأعظم فإنَّ أثر الأعمال سوف يكون أعظم وأشدّ رسوخاً .

ولأنَّ كلّ الموجودات هي مخلوقات الله ، فعلى السالك أن يحبّها جميعاً ، ويحترم كلّ واحد حسب مرتبته ودرجته . فالعطف والإشفاق على كلّ ما ينتسب إلى الله سواء كان حيواناً أو إنساناً ،

كلٌّ في مرتبته ومقامه ، كلّ هذا من آثار محبّة الله ، كما ورد في الحديث : «إنَّ عمدة شعب الإيمان الشفقة على خلق الله» . **إلَهِي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ...**

أُحِبُّ بُحُبِّهَا تَـلَعَاتِ نَـجْدٍ وَمَا شَغَفِي بِهَا لَوْلَا هَوَاهَـا
أَذِلُّ لِآلِ لَيْلَى فِـي هَـوَاهَـا وَأَحْتَمِلُ الأَصَاغِرَ وَالكِبَارَا

الحادي عشر : حفظ الأدب

تجاه الحضرة المقدّسة لربّ العزّة وخلفائه . وهذا الأمر يختلف عن معنى المحبّة الذي ذكر سابقاً . والأدب عبارة عن الالتفات إلى النفس كيلا تتعدّى حدودها ، وتخالف مقتضى العبوديّة ، فكلّ ممكن له حدّ وحريم في قبال الواجب ، ولازم حفظ الأدب رعاية مقتضيات عالم الكثرة ، ولكنَّ الحبّ هو انجذاب النفس إلى الحضرة الإلهيّة ، ولازمه الالتفات إلى الوحدة .

إنَّ النسبة بين الحبّ والأدب مثل النسبة بين الواجب والمحرّم من الأحكام ، لأنَّ السالك أثناء أداء الواجب يتوجّه إلى المحبوب وفي الاجتناب عن الحرام يتوجّه إلى حريمه الخاصّ كيلا يخرج عن حدوده الإمكانيّة ومقتضى عبوديّته ، فالأدب يرجع ـ في حقيقته ـ إلى جانب اتّخاذ الطريق المعتدل بين الخوف والرجاء ، ولازم عدم رعاية الأدب كثرة الانبساط بمقدار يوجب تجاوز

الحدود المرسومة للسالك .

كان **المرحوم الحاجّ الميرزا علي القاضي** رضوان الله عليه يغلب لديه جانب الحبّ والانبساط على جانب الخوف ، وكذلك كان **المرحوم الحاجّ الشيخ محمّد البهاريّ** رحمة الله عليه ، وفي المقابل **الحاجّ الميرزا جواد الملكيّ التبريزيّ** رضوان الله عليه ، حيث كان مقام الخوف غالباً على الرجاء والانبساط ، وهذا الأمر مشهود من خلال جوانب وزوايا أحاديثه . والذي يكون رجاؤه أكثر يقال له «الخراباتيّ» ، وأمّا من يطغى خوفه فيسمّى «المناجاتيّ» . ولكنَّ الكمال في رعاية الاعتدال ، وهو عبارة عن حيازة كمال الرجاء في عين كمال الخوف ، وهذا ما ينحصر وجوده في شخص الأئمّة الأطهار عليهم السلام .

نعود إلى صلب الموضوع فمحصِّل الكلام أنَّ الأدب هو أن لا ينسى الممكن حدوده الإمكانيّة ، ولهذا نرى الإمام الصادق عليه السلام يخرّ ساجداً للّه تعالى واضعاً جبينه المبارك على التراب عندما يسمع بضع كلمات في حقّه يشمّ منها رائحة الغلو .

والمرتبة الكاملة من الأدب هي أن يعتبر السالك نفسه دائماً وفي جميع الأحوال في محضر الحقّ سبحانه وتعالى ، ويلاحظ الأدب في حال التكلّم والسكوت ، في النوم واليقظة ، في الحركة

والسكون ، وفي تمام الحركات والسكنات ، ولو التفت السالك دائماً إلى الأسماء والصفات الإلهيّة سوف تظهر عليه علائم الأدب والصغر .

الثاني عشر : النيّة

وذلك أن لا يكون للسالك قصد من السلوك سوى نفس السلوك والفناء في الذات الأحديّة ، وعليه ، ينبغي أن يكون سير السالك خالصاً للّه تعالى : **فَٱدْعُوا ٱللَهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ** .[1] وقد جاء في عدّة أخبار أنَّ للنيّة ثلاث مراتب ، منها ما قاله الصادق عليه السلام :

العُبَّادُ ثَلَاثَةٌ : قَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ خَوْفَاً فَتِلْكَ عِبَادَةُ العَبِيدِ . وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ طَمَعَاً فَتِلَكَ عِبَادَةُ الأُجَرَاءِ . وَقَوْمٌ عَبَدُوا اللَهَ حُبَّاً فَتِلَكَ عِبَادَةُ الأَحْرَارِ .

بالتأمّل والتدقيق يتّضح أنَّ عبادة الطائفتين الأُوليين ليست صحيحة حقيقة ، لأنَّ عبادتهم لم تكن للّه وإلى الله ، وإنَّما تعود إلى عبادة النفس ، فهم ـ في الواقع ـ كانوا يعبدون ذواتهم دون الله تعالى ، لأنَّ عبادتهم تعود في واقعها إلى تلك العلائق

١ـ الآية ١٤ : من السورة ٤٠ : غافر .

والمشتهيات النفسانيّة ، ولأنَّ عبادة النفس لا تجتمع مع عبادة الله ، لذا تعدّ هذه الجماعة ـ حسب النظرة الأُولى ـ كافرة بالله ومنكرة له ، لكن باعتبار أنَّ القرآن الكريم ينصّ على أنَّ أصل عبادة الله فطريّ في كلّ البشر ، وينفي حدوث أيّ تغيّر أو تبدّل في خلقه :

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .[1]

لا يرجع انحراف البشر ـ بناء على ذلك ـ إلى أصل عبادة الله ، بل يرجع إلى مقام التوحيد ، أي عدم الإيمان بوحدانيّة الله في الفعل والصفة وجعل شركاء له ، ولهذا نجد أنَّ القرآن في كلّ مجال يصرّح بثبوت توحيد الله ونفي الشرك عنه ، وعلى هذا الأساس فإنَّ أهل الطائفتينِ الأُوليينِ يشركون بالله بالقصد . ويمزجون في مقام العمل بين عبادة الله وعبادة الذات ، ويؤدّون الأفعال والأعمال العباديّة بكلا الداعيينِ . وهذا هو الشرك . وفي الحقيقة هم مشركون بالله وبنصّ القرآن لن يغفر لهم .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن

١ـ الآية ٣٠ ، من السورة ٣٠ : الروم .

يَشَآءُ.[1]

وهكذا فإنَّ عبادتهم لن تكون مثمرة أبداً ، ولن تقرّبهم إلى الله المتعال .

أمّا الطائفة الثالثة التي تعبد الله على أساس المحبّة ، وهي عبادة الأحرار ، وفي بعض الروايات : **تِلْكَ عِبَادَةُ الكِرَامِ** ، فها هي العبادة الصحيحة الواقعيّة التي لن يصل إليها إلّا المطهّرون في الساحة الإلهيّة . **فَهَذَا مَقَامٌ مَكْنُونٌ لَا يَمَسُّهُ إلَّا المُطَهَّرُونَ** .

فالمحبّة عبارة عن الانجذاب ، أي الانجذاب نحو شيء وحقيقة ، والطائفة الثالثة هم الذين بنوا عبادتهم على أساس المحبّة والانجذاب إلى الله ، وليس لهم أيّ هدف أو مقصد سوى الميل نحوه تعالى والتقرّب إليه ، وهذا الانجذاب الذي يشعرون به تجاه المحبوب هو الداعي والمحرّك لهم نحوه ، والموجب لسيرهم باتّجاه ذلك الحريم المقدّس .

قد جاء في بعض الروايات أن اعبدوا الحقّ تعالى من حيث إنَّه أهل للعبادة . ومعلوم أنَّ هذه الأهليّة لا تعود إلى الصفات الإلهيّة ، بل إلى مقام ذاته المقدّسة جَلَّ جَلَالُه وعَظُمَ شَأْنُهُ ، فيكون مفاد ذلك أن اعبدوا الله لأنّه الله :

١ـ الآية ٤٨ ، من السورة ٤ : النساء .

إلَهِي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفَاً مِنْ نَارِكَ وَلَا طَمَعَاً فِي جَنَّتِكَ ، بَلْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ .

أَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ ، وَدَعَوْتَنِي إِلَيْكَ ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ مَا أَنْتَ .

ويخطو سالك طريق الله في بداية سلوكه بقدم المحبّة ، ولكن بعد أن يطوي المنازل ، ويحصل إجمالاً على بعض الكمالات ، سوف يدرك أنَّ المحبّة أمر مغاير للمحبوب ، فيسعى لترك المحبّة التي كانت حتّى هذا الحين وسيلة لسلوكه ومعراجاً لرقيّه ، ويدرك أنَّ هذه الوسيلة التي كانت مؤثّرة أصبحت الآن مضرّة ومانعة للطريق . ومن هنا يضع السالك فقط وفقط محبوبه نصب عينيه ويعبده بعنوان المحبوبيّة لا غير ، ولكن عندما يتقدّم أكثر ويطوي منازل عدّة ، يدرك أنَّ هذا النوع من العبادة لم يكن خالياً من شائبة شرك ، لأنّه قد عدّ نفسه في هذه العبادة عاشقاً ومحبّاً ، واعتبر الله معشوقاً ومحبوباً ، فيرى لذاته كمحبّ وجوداً في قبال ذات المحبوب ، لذا فإنَّ النظر إلى المحبوب بعنوان المحبّ مغاير ومناف لعبادة الذات المقدّسة للّه تعالى ، ومن هنا يسعى لينسى عنواني الحبّ والعشق حتّى يتجاوز المغايرة والكثرة ، ويضع قدمه في عالم الوحدة ، وعندها تختفي النيّة من السالك

وتمحى ، لأنـّه لن يكون بعد ذلك شخصيّة وذاتيّة للسالك تصدر عنها النيّة .

إلى ما قبل هذه المرحلة كان السالك طالباً للمكاشفة والشهود ، ولكنّه في هذا المقام يدع تلك الأغراض كلّها عرضة للنسيان ، فلن يكون بعد ذلك إرادة ليكون اعتبار للمراد والمقصود . وفي هذه الحالة يُغمض السالك عينيه عن الرؤية واللارؤية ، والوصول واللاوصول ، والمعرفة واللامعرفة ، والردّ والقبول . يقول حافظ الشيرازيّ :

با خرابات نشينان ز كرامات ملاف

هر سخن جائى و هر نكته مقامى دارد[1]

ورد عن الإمام السجّاد عليه السلام ، في دعاء أبي حمزة الثماليّ ، قوله : **مَعرِفَتِي يَا مَولَايَ دَلِيلِي عَلَيكَ ، وَحُبِّي لَكَ شَفِيعِي إلَيكَ ؛ وَأنَا وَاثِقٌ مِنْ دَلِيلِي بِدلاَلَتِكَ ، وَسَاكِنٌ مِنْ شَفِيعِي بِشَفَاعَتِكَ .**

ونقل عن بايزيد البسطاميّ أنـّه قال : «تركت الدنيا في اليوم الأوّل ، وفي اليوم الثاني تركت العُقبى ، وفي اليوم الثالث تخطّيت

١ـ يقول : «تعرّف على قدرك ولا تتحدّث عن الكرامات في حضرة من اتّخذ من البيوت المهجورة سكناً له ، فإنَّ لكلّ مقام مقال» .

ما سوى الله ، وفي اليوم الرابع سُئِلتُ : **مَا تُرِيدُ** ؟ فقلت : **أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدُ**» .

ويشير إلى نفس المطلب الذي يصرّح به البعض في تعيين المنازل الأربعة : الأوّل : ترك الدنيا . الثاني : ترك العقبى . الثالث : ترك المولى . الرابع : ترك الترك ، فَتَدَبَّرْ . والمراد من نبذ الطمع عند السالكين هو هذه المرحلة العظيمة والعقبة المشكلة ، وعبورها في غاية الصعوبة ، وليس تحصيلها بالهيّن ، لأنَّ السالك في هذه المرحلة بعد التأمّل والتدقيق يجد أنّه لم يكن خالياً من النيّة في تمام مراحل السير ، بل كان له غاية ومقصود في سويداء قلبه ، وإن كانت تلك الغاية هي العبور من مراحل الضعف والنقص والوصول إلى الكمال والكمالات . ولو سعى السالك ـ عن طريق تجريد الذهن ، والضغط على نفسه مرّات عديدة ـ ليعبر هذه العقبة ، ويعرّي ويجرّد نفسه من هذه المعاني والمقاصد ، سوف لن يحصل على أيّة نتيجة ، لأنَّ نفس هذا التجريد مستلزم لعدم التجريد ، وذلك لأنَّ نفس ذلك التجريد لم يكن من السالك إلّا لداعٍ وغاية وهذا النظر إلى الغاية دليل وعلامة على عدم التجريد .

ذات يوم طرحتُ هذا السرّ على أُستاذي المرحوم **الحاجّ الميرزا علي القاضي** رضوان الله عليه ، والتمست منه حلّ هذه

المعضلة ، فقال : «يمكن حلّها بواسطة اعتماد طريقة الإحراق ، وذلك بأن يدرك السالك ـ حقيقة ـ أنَّ الله تعالى خلقه مفطوراً على هذه الصفة ، وكلمّا أراد أن ينبذ الطمع لن يحصل على نتيجة ، لأنَّ فطرته جبلت عليه ، فسعيه لنبذ الطمع عن نفسه مستلزم لطمع آخر ، لأنـّه لا يسعى لذلك إلّا طمعاً في الحصول على مرتبة أعلى من التي هو فيها ، وهكذا إلى أن يشعر بالعجز التامّ عن التخلّي عن هذه الصفة ، فلا يجد حينئذٍ مفرّاً سوى اللجوء إلى الله تعالى وتوكيل الأمر إليه ، وهذا الشعور بالعجز كفيل بأن يحرق بناره جذور الطمع في نفسه ، فيعود السالك بعدها نزيلاً طاهراً» .

وليعلم أنَّ الوصول إلى إدراك هذا المعنى لا يكون بمجرّد إعمال النظر والتفكير ، بل إنَّ إدراكه الواقعيّ يحتاج إلى الذوق وحصول الحال . ولو أنَّ أحداً أدرك هذا المعنى بالذوق لفهم أنَّ إدراك تمام لذّات الدنيا وما فيها لا يساوي هذه الحقيقة .

ثمّ إنَّ سبب تسمية هذه الطريقة بالإحراق هو أنـّها تحرق أكوام الوجودات والنيّات والغصص والمشكلات دفعة واحدة ، وتجتثّها من الجذور ، ولا تبقي لها من أثر في وجود السالك .

وقد استفيد في القرآن الكريم من هذه الطريقة في بعض الموارد ، فمن يستخدم هذه الطريقة لأجل الوصول إلى المقصود ،

ويسير في هذا السبيل ، فإنَّ الطريق الذي يجب طيّه في سنوات يطويه في مدّة قليلة . وأحد الموارد التي استفيد فيها من هذه الطريقة في القرآن الكريم ، كلمة الاسترجاع :

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

فالإنسان يستطيع حين الشدائد والمصائب ونزول البلايا والفتن أن يسكِّن نفسه بطرق مختلفة ، كأن يتذكّر أنَّ الموت للجميع ، والمصيبة تحلّ على كلّ الناس ، وبهذه الوسيلة تهدأ نفسه شيئاً فشيئاً . ولكنَّ الله يقصّر الطريق بواسطة الطريقة الإحراقيّة وتلقين كلمة الاسترجاع ، ويرفع المشكل مرّة واحدة ، لأنَّ الإنسان لو تذكّر أنَّ نفسه وكلّ متعلّقاتها وما يملكه هو ملك مطلق للّه ، قد أُعطي له ذات يوم وسوف يؤخذ في يوم آخر ، ولا حقّ لأحد في التدخّل فيه ، عندما يدرك الإنسان جيّداً أنّه منذ البدء لم يكن مالكاً ، وإنّما كان عنوان الملكيّة له مجازيّاً وقد كان يتخيّل أنّه المالك ، سوف لن يتأثّر في حال فقدانه ، فإذا بأُفقه مُتَّسع ، وطريقه معبّد .

فإدراك السالك أنَّ الله تعالى فطره على الحرص والطمع كإدراكه أنَّ الخالق الغنيّ خلق عبده فقيراً محتاجاً قد خمرت طينته بالفاقة والعوز ، وأنَّ السؤال والطلب لديه ـ باعتباره لازم فقره

وحاجته ـ غنيّ عن الدليل والبرهان ، فلا يحقّ لفرد الاعتراض على سؤال فقير ما ، فافتراض الفقر فيه يوازي افتراض السؤال والطلب ، فلا ينبغي للسالك ـ بناء على ذلك ـ أن يرتاب حينما يلمس من ذاته حرصاً أو طمعاً خلال سيره وحركته ، إذ ليس بمقدوره اجتثاث عنصر الطمع من ذاته بعد أن خلق مفطوراً عليه . هذا من جانب ، ومن جانب آخر باعتبار أنَّ الفناء في الذات الإلهيّة ـ المبتني على أساس عبادة الأحرار ـ لا يتلائم وداعي الطمع في النفس ، سوف تعتري السالك حالة من الخوف والهلع ، وشعور بالاضطراب والمسكنة ، تلك الحالة وذلك الشعور يأخذان بيد السالك ليتخطّى ذاته الملازمة لتلك الصفة ، فلا تبقى ـ بعد اجتياز هذه المرحلة ـ ذات لتكون محلّاً للحرص والطمع . فافهَمْ وتأمَّل جيِّداً .

الثالث عشر : الصمت

وهو على قسمين : سكوت عامّ ومضاف ، وسكوت خاصّ ومطلق . فالسكوت العامّ والمضاف عبارة عن حفظ اللسان من التكلّم بالقدر الزائد عن الضرورة مع الناس ، فيجب على السالك أن يكتفي بقدر الضرورة ، وبأقلّ ما يمكن . وهذا الصمت لازم في جميع مراحل السلوك ، وفي كلّ الأوقات ، بل يمكن القول بأنّه ممدوح في مطلق الأحوال . ويشير إلى هذا الصمت قوله عليه

السلام : **إنَّ شِيعَتَنَا الخُرْسُ** ، وأيضاً ما نقل عن الصادق عليه السلام في «مصباح الشريعة» :

الصَّمْتُ شِعَارُ المُحِبِّينَ ، وَفِيهِ رِضَا الرَّبِّ ، وَهُوَ مِنْ أَخْلَاقِ الأَنْبِيَاءِ وَشِعَارِ الأَصْفِيَاءِ .

وفي حديث البزنطيّ عن الإمام الرضا عليه السلام :

الصَّمْتُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الحِكْمَةِ ، وَإِنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ .

القسم الثاني : السكوت الخاصّ والمطلق ، وهو عبارة عن حفظ اللسان من التكلّم مع الناس حين الاشتغال بالأذكار الكلاميّة الحصريّة ، وفي غيرها غير مستحسن .

الرابع عشر : الجوع وقلّة الأكل

وهو ما لا يؤدّي إلى الضعف واضطراب الحال . قال الصادق عليه السلام :

الجُوعُ إدَامُ المُؤْمِنِ ، وَغِذَاءُ الرُّوحِ ، وَطَعَامُ القَلْبِ .

ذلك أنَّ الجوع موجب لخفّة الروح ونورانيّة النفس ، ويمكن للفكر في حال الجوع أن يحلّق إلى الأعلى . أمّا كثرة الأكل والشبع فإنَّه يُتعب النفس ويمللها ويثقلها ويمنعها من السير في سماء المعرفة . والصوم من العبادات الممدوحة جدّاً ، وفي الروايات الخاصّة بالمعراج التي يخاطب الله تعالى فيها حبيبه

رسول الله صلّى الله عليه وآله بـ «يا أحمد» ، والمذكورة في «إرشاد الديلميّ» والجزء السابع عشر من «بحار الأنوار» يوجد تفاصيل عجيبة بشأن الجوع ، تبيّن خصائصه في السير والسلوك بشكل مدهش . وينقل المرحوم الأُستاذ القاضي رضوان الله عليه رواية غريبة بشأن الجوع ، وهي :

«كان في زمان الأنبياء الماضين ثلاثة رجال قد تصاحبوا في سفر ، وعندما حان الليل تفرّق كلّ واحد منهم للاستراحة ، واتّفقوا على الالتقاء في اليوم التالي في وقت محدّد ، فنزل أحدهم ضيفاً عند معارفه ، والآخر نزل في أحد المضايف ، وأمّا الثالث فلم يكن لديه مكان ، فقال في نفسه : فلأذهب إلى المسجد وأكون ضيفاً عند الله ، وبقي هناك جائعاً إلى الصباح . وفي اليوم التالي التقوا في الموعد المحدّد ، وأخذ كلّ واحد منهم يروي ما حصل له في الأمس ، فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان أن قل لضيفنا : إنّنا قبلنا ضيافته ، وقد أردنا أن نحضر له أفضل غذاء ، لكن عندما بحثنا في خزائن الغيب لم نجد له أفضل من الجوع غذاءً» .

الخامس عشر : العزلة

وهي على شكلين : العزلة العامّة ، والعزلة الخاصّة .

العزلة العامّة ، عبارة عن اجتناب واعتزال غير أهل الله ،

وبالخصوص أصحاب العقول الضعيفة من عوامّ الناس إلّا بقدر الضرورة .

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا [1]

وأمّا العزلة الخاصّة ، فهي الابتعاد عن جميع الناس . وهي وإن كانت غير خالية من الفضيلة في العبادات والأذكار ، إلّا أنّها تعتبر ـ عند مشايخ الطريق ـ شرطاً في طائفة من الأذكار الكلاميّة بل في جميعها .

فالعزلة والإبتعاد عن محلّ الإزدحام والضوضاء والأصوات المشوّشة للحال وحلّيّة المكان وطهارته حتّى السقف والجدران ، وصغره بحيث لا يسع أكثر من شخص واحد ، والسعي أن لا يكون فيه أيّة زخارف دنيويّة ، كلّ هذه باعثة على تركيز الحواسّ .

يروى أنَّ أحد الأشخاص طلب من **سلمان** رضي الله عنه أن يجيز له بناء بيت له ، لأنّه لم يكن قد امتلك بيتاً حتّى ذلك الزمان ، ولمّا لم يجز له سلمان قال : أنا أعرف لماذا لا تريد ، فقال سلمان : ما هي العلّة ؟ فقال البنّاء : سبب ذلك أنّك تريد بيتاً طوله وعرضه بمقدارك ، وهذا ليس ميسوراً ، فقال سلمان : بلى ؛ قد صدقت .

١ـ الآية ٧٠ ، من السورة ٦ : الأنعام .

وبعدها أخذ البنّاء إجازة لبناء مثل ذلك البيت وبناه .

السادس عشر : السهر

وهو الاستيقاظ في السحر بقدر ما تحتمله طبيعة السالك ، فقد ورد في ذمّ النوم وقت السحر ومدح القيام فيه قوله تعالى :

كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .[1]

السابع عشر : المداومة على الطهارة

وهي المحافظة على الوضوء والأغسال الواجبة ، وغسل الجمعة وسائر الأغسال المستحبّة قدر المستطاع .

الثامن عشر : المبالغة في التضرّع

والمسكنة والبكاء والتذلّل .

التاسع عشر : الاحتراز عن اللذائذ

والمشتهيات قدر المستطاع ، والإكتفاء بما يقوم عليه البدن والحياة .

العشرون : كتمان السرّ

وهو من الشروط المهمّة جدّاً ، وقد اهتمّ به عظماء الطريق

١ـ الآيتان ١٦ و ١٧ ، من السورة ٥١ : الذاريات .

كثيراً ، وأمعنوا في توصية تلاميذهم به ، سواء كان في العمل والأوراد والأذكار ، أم في الواردات والمكاشفات والحالات ، بل وفي الموارد التي لا يمكن التزام التقيّة فيها ، ويكون السرّ فيها أقرب إلى الذياع والانكشاف ، صرّحوا بلزوم التورية والكتمان حتّى لو كان كتمان السرّ مستلزماً لترك العمل يجب رفع اليد عنه .

وَاسْتَعِينُوا عَلَى حَوَائِجِكُمْ بِالكِتْمَانِ .

فبالتقيّة والكتمان تتقلّص المصائب والشدائد معهما ، وترك التقيّة يؤدّي إلى ازدياد الفتن والبلايا والمصائب ، لكن على الرغم من ذلك ينبغي للسالك ـ حين بروز المصاعب ـ مواصلة السير مستعيناً بالصبر والاحتمال :

وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ .[1]

المراد من الصلاة في هذه الآية هو نفس المعنى اللغويّ ، أي الالتفات إلى الربّ العظيم ، وهكذا تخفّ الشدائد والمصائب بذكر الله والصبر والاحتمال ، ويسير السالك نحو النصر والنجاح ، ولهذا نجد أنَّ نفس أُولئك الذين ينتحبون لجرح يصيب أيديهم

١ـ الآية ٤٥ ، من السورة ٢ : البقرة .

مثلاً ، نجدهم في ميدان الجهاد ومقاتلة أعداء الدين لا يخافون من أن تقطع أيديهم وأرجلهم وسائر أعضائهم ، بل إنّهم لا يشعرون في أنفسهم بأيّ ضعف أو خوف . على أساس هذه القاعدة الكلّيّة أوصى الأئمّة الأطهار عليهم السلام بكتمان الأسرار في وصايا عديدة وعجيبة إلى درجة أنّهم عدّوا ترك التقيّة من الذنوب الكبيرة .

ذات يوم ، سأل أبو بصير الإمام الصادق عليه السلام ؛ قال : **قُلْتُ لَهُ : أَخْبِرْنِي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ . هَلْ يَرَاهُ المُؤْمِنونَ يَوْمَ القيامة ؟**

(إذ يعتقد الأشاعرة أنَّ الناس يرون الله تعالى على نحو الجسميّة في يوم القيامة وفي المواقف الأُخرى ، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً)

قَالَ : نَعَمْ ؛ وَقَدْ رَأَوْهُ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ . فَقُلْتُ : مَتَى ؟ قَالَ : حِيْنَ قَالَ لَهُمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى ؛ ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ : وَإِنَّ المُؤْمِنِينَ لَيَرونَهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ ، أَلَسْتَ تَرَاهُ فِي وَقْتِكَ هَذَا؟ قَالَ أَبُو بَصِيرٍ : فَقُلْتُ لَهُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ فَأُحَدِّثُ بِهَذَا عَنْكَ ؟ فَقَالَ : لَا ؛ فَإِنَّكَ إذَا حَدَّثْتَ بِهِ فَأَنْكَرَهُ مُنْكِرٌ جَاهِلٌ بِمَعْنَى مَا تَقُولُهُ ثُمَّ قَدَّرَ أنَّ ذَلِكَ تَشْبيهٌ كَفَرَ ، وَلَيْسَتِ الرُّؤْيَةُ

بِـــالقَلْبِ كَـالرُّؤْيَةِ بِـالعَيْنِ. تَـعَالَى اللَـهُ عَـمَّا يَـصِفُهُ المُشَـبِّهُونَ وَالمُلْحِدُونَ».[1]

الحادي والعشرون: الشيخ والأُستاذ

وهو على قسمين: أُستاذ عامّ وأُستاذ خاصّ. الأُستاذ العامّ لا يكون مأموراً بخصوص مسائل الهداية، والرجوع إليه هـو مـن باب الرجوع إلى أهل الخبرة. فيدخل في عموم: **فَٱسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**.[2]،ولزوم الرجوع إلى الأُستاذ العامّ يكون في بداية السير والسلوك فقط، أمّا عـندما يشـرف السـالك عـلى المشاهدات والتجلّيات الصفاتيّة والذاتيّة، فلا تـعود الصـحبة له لازمة. وأمّا الأُستاذ الخاصّ بالإرشاد والهداية، فـهو رسـول اللـه وخليفته بالحقّ، ولا ينفكّ السالك في أيّ حال من الأحوال عـن ملازمته، وإن كان واصلاً إلى الوطن المقصود. والمراد بالمرافقة هو مرافقة السـالك البـاطنيّة للإمـام، وليس المـراد بـها الصـحبة والملازمة في مقام الظاهر، لأنَّ حقيقة الإمام تتجلّى فـي مـقامه النورانيّ الذي له السلطة على العالم والعالمين، وأمّا بدنه المادّيّ، فهو وإن كان يمتاز عن سائر الأبـدان، لكـنّه ليس مـنشأ للآثـار،

١ـ «التوحيد» للشيخ الصدوق، ص ١١٧.

٢ـ الآية ٤٣، من السورة ١٦: النحل.

ولا متصرّفاً في أُمور الكائنات .

ولتوضيح هذه المسألة نذكر بأنَّ الذي يتحقّق في عالم الخلقة إنَّما منشأه الصفات والأسماء الإلهيّة ، وحقيقة الإمام هي أسماء الله وصفاته ، ولهذا قالوا عليهم السلام : إنَّ دائرة عالم الوجود والأفلاك وجميع الكائنات تتحرّك بأيدينا ، وما يحدث إنَّما يحدث بإذننا : **بِنَا عُرِفَ اللَهُ ، بِنَا عُبِدَ اللَهُ** . إذن فالسالك في حال السير إنّما يسير في المراتب النورانيّة للإمام ، وكلّما ارتقى درجة أو مرتبة فإنَّ هذه الدرجة أو المرتبة هي في متناول يد الإمام الذي يرافقه في تلك الدرجة أو المرتبة .

وكذلك بعد الوصول أيضاً ، فإنَّ مرافقة الإمام لازمة ، لأنَّ لدولة اللاهوت آداباً يجب أن يعلّمها الإمام للسالك . فمرافقة الإمام في جميع الحالات من الشروط المهمّة ، بل من أهمّ شروط السلوك ، وهنا ملاحظات ـ مهمّة لن يتيسّر بيانها ـ على السالك أن يدرك حقائقها بواسطة الذوق .

ذهب **محيي الدين بن عربي** يوماً إلى أُستاذه وشكا إليه كثرة الظلم والعصيان ، فقال له : «توجّه إلى ربّك ، ثمّ ذهب بعد مدّة إلى أُستاذ آخر وشكا إليه الظلم وشيوع المعاصي ، فقال الأُستاذ : توجّه إلى نفسك . وعندما سمع ذلك بدأ بالبكاء ملتمساً من الأُستاذ

بيان سبب اختلاف الإجابات ، فقال له : يا قرّة عيني ؛ إنَّ الأجوبة واحدة ، فهو قد دعاك إلى الرفيق الأعلى ، وأنا دعوتك إلى الطريق» .

لقد أوردنا هذه القصّة هنا حتّى يُعلم أنَّ السير إلى الله لا يتنافى مع السير في مراتب الأسماء والصفات الإلهيّة التي هي نفس مقام الإمام ، فهما قريبان جدّاً ، بل هما أمر واحد حقّاً ، وليس للثنائيّة وجود في هذه المرحلة ، فكلّ الوجود نور واحد هو نور الله ، غاية الأمر أنّه يُعبّر عن ذلك النور بتعابير مختلفة ، أحياناً بالأسماء والصفات الإلهيّة ، وأحياناً بحقيقة الإمام ونورانيّته .

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ
وَكُلٌّ إلَى ذَاكَ الجَمَالُ يُشِيرُ

أمّا الأُستاذ العامّ فلا يُعرَف إلّا بالصحبة والرفقة في السرّ والعلانية ، حتّى يدرك السالك يقيناً واقعيّته ، فظهور خوارق العادات ، والاطّلاع على المغيّبات وأسرار خواطر الناس ، والعبور فوق الماء والنار وطيّ الأرض والهواء والاطّلاع على الماضي والمستقبل وأمثال هذه الغرائب والعجائب ، لا يمكن أن تكون دليلاً على وصول صاحبها ، لأنَّ هذه كلّها إنّما تحصل في مرتبة المكاشفة الروحيّة ، ومنها إلى الوصول والكمال طريق بلا نهاية .

وإلى ذلك الحين الذي لم تـظهر عـلى الأُسـتاذ التـجلّيات الذاتـيّة الربّانيّة فهو ليس بأُستاذ ، ولا يمكن الاكـتفاء بـمجرّد التـجلّيات الصفاتيّة والأسمائيّة واعتبارها كاشفة عن الوصول والكمال .

والمقصود من التجلّي للصفات هو أن يشاهد السالك في نفسه صفة الله ، فيرى علمه أو قدرته أو حياته حياة وعلم وقدرة الله ،كأن يدرك أن الشيء الذي يسمعه قد سمعه الله وهو السميع ، أو يدرك أنَّ الشيء الذي يراه قد رآه الله وهو البصير ، أو أنَّ العلم في العالم منحصر بالله ، وأنَّ علم كلّ موجود مستند إلى علمه ، بل هو نفس علمه .

والمراد من التجلّي للأسماء هو أن يشاهد في نفسه صفات الله المستندة إلى ذاته ، مثل القائم العالم السـميع البـصير الحـيّ القدير وأمثالها ،كأن يرى أنَّ العليم في العـالم واحـد وهـو اللـه تعالى ،ولا يرى نفسه عليماً في قبال الله ، بل كونه عليماً هو عين كون الله عليماً ، أو أن يدرك أنَّ الحيّ واحـد وهـو اللـه ، وأنـّـه ليس حيّاً أصلاً ، بل الحيّ هـو اللـه فـقط ،وأخـيراً أن يـدرك أن لَيْسَ القَدِيرُ وَالعَلِيمُ وَالحَيُّ إلَّا هُوَ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ .

وبالطبع يمكن أن يتحقّق التجلّي للأسـماء فـي خـصوص بعض الأسماء الإلهيّة ، ولا يلزم من تجلٍّ واحدٍ أو اثنين من هـذه

الأسماء في السالك أن تتجلّى البقيّة فيه .

أمّا التجلّي الذاتيّ فهو أن تتجلّى الذات المقدّسة للباري تعالى في السالك ، وهذا إنّما يحصل بعد أن يعبر السالك من الاسم والرسم ، وبعبارة أُخرى حينما يكون قد فقد نفسه كلّيّاً ، فلا يجد أثراً لذاته في عالم الوجود ، ويودّع الذات والذاتيّة دفعة واحدة في غياهب النسيان **وَلَيْسَ هُنَاكَ إلَّا اللَهُ** ، فلا يتصوّر بعد ذلك ضلال وضياع لمثل هذا الإنسان ، لأنّه ما دام هناك ذرّة من الوجود في السالك ، فإنَّ طمع الشيطان لا ينقطع عنه ، وما زال يأمل في إضلاله وغوايته ، ولكن عندما يطوي السالك ـ بحول الله وقوّته ـ بساط الذاتيّة والأنانيّة ، ويدخل إلى عالم اللاهوت ويرد إلى حرم الله ، ويرتدي لباس الإحرام ، ويشرف على التجلّيات الذاتيّة الربّانيّة ، فإنَّ الشيطان ييأس من غوايته ، ويغلق باب الطمع في إضلاله ، ويجلس محسوراً ، فيجب أن يصل الأُستاذ العامّ إلى هذه المرتبة من الكمال ، وإلّا فإنَّه لن يبايع مع أيّ شخص ولا ينقاد له .

هزار دام به هر گـام ايـن بـيابان است

كه از هزار هزاران يكى از آن نـجهند[1]

١ـ يقول «ألف فخٍّ تحت كلّ خطوة في هذه البسيطة لا يمكن اجتيازها إلّا لواحد من بين ألف ألف شخص» .

إذن لا ينبغي أن يسلّم الإنسان لكلّ من عرض متاعه وأظهر بضاعته وادّعى الكشف والشهود ، نعم ينبغي أن يتوكّل على الله في الموضع الذي يكون التحقيق والفحص في أمر الأُستاذ متعذّراً وصعباً ، ويعرض كلّ ما يسمعه منه ويأمره به على كتاب الله وسنّة رسول الله وسيرة الأئمّة الأطهار صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فإذا وافقها يعمل به ، وإلّا فلا يرتّب عليه أثراً ، ولن يكون للشيطان أيّ سلطة على من يسير بقدر التوكّل على الله :

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ .[1]

الثاني والعشرون : الورد

وهو عبارة عن الأذكار والأوراد الكلاميّة ، وكيفيّتها وكمّيّتها منوطة برأي الأُستاذ ، لأنَّ مَثَلها مثل الدواء ، بعضها نافع وبعضها ضارّ ، وقد يحدث أن يشتغل السالك بنوعين من الورد ، أحدهما يوجهه إلى الكثرة والآخر إلى الوحدة ، وفي حال اجتماعهما تكون النتيجة أن يبطل كلّ منهما الآخر ، فلا يعودان عليه بفائدة . فالأُستاذ إذَن شرط في الذكر الذي لم يأت بخصوصه إذْنٌ عامّ ، وأمّا

١ـ الآيتان ٩٩ و ١٠٠ ، من السورة ١٦ : النحل .

الذي جاء فيه إذْن عامّ فلا مانع من الاشتغال به .

الورد على أربعة أقسام : قالبيّ ، وخفيّ ، وكلّ منهما إمّا إطلاقيّ أو حصريّ . وأهل السلوك لا يعتنون بالقالبيّ ، لأنَّ الورد القالبيّ عبارة عن تلفّظ اللسان دون الالتفات إلى المعنى ، وفي الواقع هو لقلقة لسان ، ولأنَّ السالك يبحث عن المعنى لا عن شيء آخر ، فلن يكون الذكر القالبيّ مفيداً له .

الثالث والعشرون ، والرابع والعشرون ، والخامس والعشرون: نفي الخواطر ، والذكر ، والفكر

وهذه المراحل الثلاث من مهمّات الوصول إلى المقصد ، وأكثر الذين انقطعوا في الطريق ولم يتمكّنوا من الوصول إلى المقصد كان توقّفهم عند إحدى هذه الثلاث ، فتوقّفوا عندها أو أصبحوا عرضة للهلاك والبوار . وأخطار هذه المنازل عبارة عن عبادة الأصنام والأوثان والكواكب والنار والبقر والزندقة والفرعونيّة وادّعاء الحلول والاتّحاد ونفي التكليف والإباحة وأمثالها ، وسوف يُشار إلى جميعها ، ولكنّنا الآن نبيّن بشكل مجمل الحلول والاتّحاد اللذين هما من الأخطار المهمّة التي تظهر للسالك من خلال تصفية الذهن بواسطة نفي الخواطر .

فالسالك لأنّه لم يكن قد خرج من وادي الاسم والرسم ،

لهذا والعياذ بالله من الممكن وعلى أثر التجلّي الصفاتيّ أو الأسمائيّ يمكن أن يتخيّل أنَّ الله متّحد مع شخصيّته ، وهذا هو معنى الحلول والاتّحاد وهو كفر وشرك . والحال أنَّ معنى وحدة الوجود ينفي كلّيّاً معنى التعدّد والتغاير ، ويعدّ تمام الوجود المتصوّر مقابل الوجود المقدّس للحضرة الإلهيّة من الوهميّات ، ويعتبره ظلّاً له ، والسالك بواسطة الارتقاء إلى هذا المقام يفقد تمام وجوده ، ويُضيّع ذاته ، ويصير فانياً ، ولا يدرك ذا وجود غير الذات المقدّسة في عالم الوجود **وَلَيْسَ فِي الدَّارِ غَيْرُهُ دَيَّارٌ** ، فأين هذا من الحلول والاتّحاد ؟!

أمّا **نفي الخواطر** : فهو عبارة عن تسخير القلب والسيطرة عليه حتّى لا يقول قولاً أو يعمل عملاً أو يرد عليه خاطر أو تصوّر إلّا بإذن صاحبه واختياره ، وتحصيل هذه الحالة صعب جدّاً ، ولهذا قالوا إنَّ نفي الخواطر من **أعظم مُطَهِّرات السِّرِ** . فالسالك عندما يسير في مقام نفي الخواطر يلتفت فجأة إلى أنَّ سيلاً جارفاً من الخواطر والأوهام والخيالات قد أحاط به ، وحتّى تلك الخواطر التي لم يكن يتصوّر أن تخطر على باله ، من وقائع الماضي المختبئ أو الخيالات المستحيلة الوقوع ، فإنَّها تجد طريقاً إليه لتشغله بنفسها دائماً . ينبغي للسالك في هذا المقام أن يبقى ثابتاً كالجبال الرواسي

بوجه كلّ خاطرة تظهر لتزاحمه ، فيهلكها ويقطّعها بسيف الذكر ، والمراد بالذكر هنا هو الأسماء الإلهيّة التي يجب أن يتوجّه السالك إلى أحدها حين بروز الخواطر ويديم التوجّه إليها مراقباً بالعين والقلب حتّى تغادر تلك الخواطر فناء القلب .

وهذا الطريق صحيح جدّاً ، إذ يجب أن تُطرد الخواطر وتُبعد بالذكر فقط ، ذلك الذكر الذي يعني التوجّه إلى أحد أسماء الله ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ .[1]

ولكن جاء في الرسالة المنسوبة إلى المرحوم بحر العلوم عدم جواز هذه الطريقة ، وهو يؤكّد فيها على ضرورة نفي الخواطر دون استخدام الذكر ، ومن ثمّ يدخل السالك مرحلة الذكر ، لأنَّ نفي الخواطر بسيف الذكر خطر جدّاً ، ونحن هنا نذكر إجمالاً ما ورد في الرسالة ، ثمّ نتعرّض له بالردّ . قال رحمة الله عليه :

«كثير من المتشيّخين ينصحون بطيّ مرحلة نفي الخواطر بالذكر (بديهيّ أنَّ المراد من الذكر الالتفات والتوجّه القلبيّ لا الذكر اللسانيّ الذي يصطلح عليه بالورد) ، وهذا خطر جدّاً ، لأنَّ

١ـ الآية ٢٠١ ، من السورة ٧ : الأعراف .

حقيقة الذكر عبارة عن ملاحظة المحبوب وقصر النظر على جماله من بعيد ، والنظر إلى المحبوب جائز عند غضّ البصر عن غيره بالمرّة ، لأنَّ المحبوب غيور ومن غيرته أنَّ العين التي تنظر إليه لا ينبغي أن تنظر إلى غيره ، عميت العين التي ترتفع عنه لتنظر إلى الغير ، ورؤية غيره تتنافى مع غيرته ، وتكرار هذا الأمر بمنزلة الاستهزاء ، والمحبوب يردّ على هذا الاستهزاء بحيث لا يبقى للناظر نظر :

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ.[1]

نعم ، هناك نوع من الذكر جائز في نفي الخواطر ، وهو أن لا يكون المراد من الذكر النظر إلى المحبوب ، بل ردع الشيطان ، مثل الذي يريد أن يخرج الآخرين من المجلس فيدعو محبوبه ، فالغرض هنا التخويف وتهديد الغير ، وبهذه الطريقة إذا هجم عليه خاطر في حال الاشتغال بنفي الخواطر بحيث يصعب دفعه ، يشتغل بالذكر من أجل رفعه .

أمّا طريقة محقّقي الطريق والعرفاء الواصلين ، فهي أنّهم يأمرون المبتدئين ـ أوّل الأمر حين تعليمهم وإرشادهم ـ بنفي

١ـ الآية ٣٦ ، من السورة ٤٣ : الزخرف .

الخواطر ومن ثمّ الاشتغال بالذكر ، ولهذا يأمرون السالك أوّلاً بالتوجّه إلى شيء من المحسوسات كالحجر أو الخشب وتركيز النظر إليه مدّة لا يزيل نظره عنه قدر الإمكان ، ويتّجه إليه بجميع قواه الظاهريّة والباطنيّة ، والأفضل أن يداوم على ذلك أربعين يوماً ، وأثناء هذه المدّة يستفيد من الأذكار الثلاثة :«الاستعاذة» و «الاستغفار» وذكر «يافَعَّال» ، ويشتغل بها بعد فريضتي الصبح والعشاء . بعد هذه المدّة يتوجّه إلى قلبه الصنوبريّ ، ويديم التوجّه إليه مدّة أُخرى توجّهاً تامّاً ، ولا يسمح لخيال آخر ـ غير هذا الخيال ـ أن يجد طريقاً إليه ، وخلال هذا العمل لو هجم عليه خاطر أو عَرَض له تشويش فإنَّه يستمدّ العون من كلمة «لَا مَوجُودَ إلَّا اللَهُ» وكلمة **الله** .

فيداوم على هذا العمل مدّة حتّى يحصل له الذهول عن النفس .ويكون الذكر خلال هذه المدّة «الاستغفار»وذكر «يا فعَّال» وتكرر اسم «يا باسِط» ، وعندما يصل السالك إلى هذه المرحلة يُؤذَن له أن يتمّ بقيّة المرحلة بواسطة الذكر النفسيّ والخياليّ ، حتّى يندفع الخاطر مطلقاً ، لأنَّ بقيّة الخواطر سوف تندفع بذاتها بالدخول في مراتب الذكر والفكر إن شاء الله» ـ انتهى ملخّصه .

وليُعلم أنَّ طريقة نفي الخواطر هذه مأخوذة من الطريقة

النقشبنديّة ، والنقشبنديّة جماعة من الصوفيّة تقطن في بقاع مختلفة من تركيا وبعض المناطق الأُخرى ، وكان مرشدهم الخواجة محمدّ النقشبند ، فلذا عرفوا بالنقشبنديّة .

أمّا طريقة المرحوم **الملّا حسين قلي الهمدانيّ** رضوان الله عليه فلم تكن بهذا الشكل ، ولم يعمل هو أو تلامذته على نفي الخواطر دون الذكر العمليّ ، فكانت نظريّتهم عبارة عن الالتزام الشديد بالمراقبة ، أي الاهتمام بمراتبها ، وقد ذكرنا هذا قبلاً وهنا سوف نبيّنه بشكل مفصّل .

أوّل درجات المراقبة أن يتجنّب السالك المحرّمات ، ويؤدّي كلّ الواجبات ، ولا يتسامح في هذا الأمر بأيّ وجه من الوجوه .

والدرجة **الثانية** ، أن يتشدّد فيها ، ويسعى أن يكون كلّ ما يعمله لرضا الله تعالى ، ويتجنّب كلّ ما يسمّى لهواً ولعباً . وباهتمامه بهذه المرتبة يحصل له التمكّن بحيث لا يضعف بعدها ، ليوصل هذه التقوى إلى حدّ الملكة .

الدرجة **الثالثة** ، هي أن يرى الله تعالى دائم النظر إليه ، وشيئاً فشيئاً يعترف ويذعن بأنَّ الله المتعال حاضر في كلّ مكان وناظر إلى كلّ المخلوقات ، ويجب أن تراعى هذه المراقبة في كلّ

الحالات وفي جميع الأوقات .

الدرجة **الرابعة** ، وهي أعلى وأكمل من سابقتها ، وهي أن يرى بنفسه حضور الله تعالى ونظره إليه ،وبتعبير مجمل يشاهد الجمال الإلهيّ ، وفي وصيّة الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله إلى أبي ذرّ إشارة إلى هاتين المرتبتين الأخيرتين من المراقبة :

اعْبُدِ اللّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ .

وعلى هذا ، فإنَّ العبادة في المرحلة التي يراه الله فيها هي أدنى من المرتبة التي يرى هو الله فيها .

عندما يصل السالك إلى هذه المرتبة ينبغي عليه طرد كلّ ما سوى الله عن ذهنه ، و أن يقوم بنفي الخواطر ضمن أحد الأعمال العباديّة ، ولا يجوز في الشرع المقدّس أن يتوجّه إلى صخرة أو خشبة ، فماذا سيكون جوابه إذا أدركه الموت في هذه اللحظات من التوجّه ؟

أمّا نفي الخواطر عن طريق سلاح الذكر فهو عبادة وممدوح من قبل الشرع ، وأفضل طرقه التوجّه إلى النفس ، فهو أسرع الطرق للوصول إلى المقصد ، لأنَّ التوجّه إلى النفس ممدوح ومقبول من الشرع المقدّس ، والآية الكريمة :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا

ٱهْتَدَيْتُمْ .[1]

تشير إلى هذا . وطريقة التوجّه إلى النفس هي طريقة المرحوم الملّا حسين قلي ، وقد سلك تلامذته جميعاً هذا الطريق المستلزم لمعرفة الربّ .

إنَّ حقيقة العرفان مأثورة عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، والطرق التي نشرت هذه الحقيقة بالتواتر تتجاوز المائة ، بينما لا تتجاوز أُصول جماعات التصوّف، الخمس وعشرين مجموعة ، وجميع هذه السلاسل تنتهي إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ومن بين هذه الجماعات اثنتان أو ثلاث منها من الخاصّة والبقيّة من العامّة ، وبعض هذه السلاسل ينتهي إلى «معروف الكرخيّ» ومنه إلى الإمام الرضا عليه السلام ، أمّا طريقتنا أي طريقة المرحوم الملّا حسين قلي فهي لا تنتهي إلى أيّ واحد منها .

وإجمال المطلب هو : قبل أكثر من مائة سنة كان يعيش في شوشتر[2] عالم جليل القدر ، وكان هذا العالم مرجعاً للناس في

١ـ الآية ١٠٥ ، من السورة ٥ : المائدة .

٢ـ شوشتر ـ وهي (تستر) معرّبة ـ : مدينة عريقة واقعة في الجنوب الغربيّ من إيران ، قريبة من مدينتي دزفول والأهواز . (م)

القضاء والأُمور العامّة ، ويـدعى **السيّد علي الشـوشتريّ** ، فكـان كباقي العلماء الأعلام متصديّاً للأُمور العامّة من التدريس والقضاء والمرجعيّة الدينيّة . في أحد الأيّام طرق بابه شخص وهو يقول : لي معك حاجة ، عندما فتح السيّد بابه رأى نسّـاجاً ، فـقال له : مـاذا تريد ؟ فأجاب بأنَّ الحكم الفلاني ـ الذي حكمت به طبق دعوى الشهود بملكيّة فلان للملك الفلاني ـ غير صحيح ، وذلك المـلك لطفل يتيم ، وسنده مدفون في المحلّ الفلاني .

فما قمت به ليس صحيحاً ، وليس هذا النهج نهجك . فيجيبه آية الله الشوشتريّ : أَوَقَعتُ في خطأ ؟ فأجاب النسّاج : الكلام هو ما قلته ، ثمّ انصرف . ففكّر آية اللـه السـيّد الشـوشتريّ طـويلاً ، وتساءل عمّن يكون هذا الرجل وماذا قـال ، ثـمّ يـقوم بـالتحقيق ويتبيّن له أنَّ سند ملكيّة الطفل مـدفون فـي ذلك المكـان ، وأنَّ الشهود على ملكيّة فلان شهود زور . فانتابه شعور بالخوف وقال في نفسه : ربّما كان الكثير من الأحكام التي أصدرتها من هذا القبيل ، فأخذه الاضطراب والخوف . وفي الليلة التالية وفي نفس الوقت يطرق النسّاج الباب من جديد ويقول له : يا سيّد ؛ ليس الطريق ما تسير إليه ، وفي الليلة الثالثة تتكرّر هذه الواقعة بـنفس الكـيفيّة ، ويقول له النسّاج : لا تتأخّر ، اجمع الأثاث وبع البيت فوراً ، ثـمّ

اتّجه إلى النجف الأشرف ، وافعل ما أقوله لك ، وبعد ستّة أشهر كن بانتظاري في وادي السلام هناك .

فقام السيّد لوقته وعمل بالتعاليم ، وباع البيت وجمع الأثاث ثمّ تهيّأ للسفر إلى النجف ، وفي اللحظة الأُولى من دخوله المدينة الشريفة يرى الرجل ذاته عند طلوع الشمس في وادي السلام ، وكأنّه خرج من بطن الأرض ليقف أمامه ويعطيه بعض التعليمات ثمّ يختفي . ويدخل المرحوم الشوشتريّ إلى النجف الأشرف عاملاً بما يمليه عليه ذلك النسّاج ليصل بعدها إلى درجة ومقام لا يمكن وصفهما رضوان الله تعالى وسلامه عليه .

وكان السيّد علي الشوشتريّ ـ مراعاة للاحترام ـ يحضر دروس الفقه والأُصول عند **الشيخ مرتضى الأنصاريّ** الذي كان بدوره يحضر دروس السيّد الأُسبوعيّة في الأخلاق ، وبعد وفاة الشيخ رحمة الله عليه يتصدّى السيّد الشوشتريّ رحمة الله عليه لإتمام الأبحاث التي انتهى إليها الشيخ ، ولكنَّ الأجل لم يمهله طويلاً ، فبعد ستّة أشهر يلتحق بالرفيق الأعلى . خلال هذه المدّة (الستّة أشهر) يكتب المرحوم الشوشتريّ ورقة إلى أحد تلامذة الشيخ الأنصاريّ البارزين ، المدعو **الملّا حسين قلي الدرجزينيّ**[1]

١ـ درجزين : قرية من توابع مدينة همدان الواقعة في الشمال الغربيّ ⇦

الهمدانيّ الذي كان له مع السيّد علاقة في أيّام المرحوم الأنصاريّ وكان يستفيد من دروسه في الأخلاق والعرفان ، وكان عازماً على التدريس وإتمام مباحث الشيخ التي كان يحرّرها بنفسه ، وفي هذه الورقة يذكره بأنَّ نهجكم هذا ليس كاملاً ، وأنّه ينبغي عليكم الحصول على المقامات العالية إضافة إلى ذلك ، غرضه من ذلك التعبير، إرشاده إلى طريق الحقّ والحقيقة .

وتمرّ الأيّام ليكون المرحوم الملّا حسين قلي ـ الذي كان يستفيد قبل سنوات من وفاة العلّامة الأنصاريّ من محضر المرحوم السيّد علي في المعارف الإلهيّة ـ من أعاظم عصره وعجائب دهره في الأخلاق ومجاهدة النفس وكسب المعارف الإلهيّة . وقد ربّى تلامذة عظاماً ، أصبح كلّ واحد منهم آية عظيمة وواحداً من أساطين المعرفة والتوحيد ، ومن أبرزهم المرحوم **الحاجّ الميرزا جواد الملكيّ** التبريزيّ ، والمرحوم **السيّد أحمد الكربلائيّ الطهرانيّ** ، والمرحوم **السيّد محمّد سعيد الحبّوبيّ** ، والمرحوم **الحاجّ الشيخ محمّد البهاريّ** .

ومن طلّاب مدرسة السيّد أحمد الكربلائيّ الأُستاذ الأعظم والعارف الأمثل المرحوم **الحاجّ الميرزا علي القاضي التبريزيّ**

⇦ من إيران . (م)

رضوان الله عليه . هذه هي سلسلة أساتذتنا التي تعود إلى المرحوم الشوشتريّ وأخيراً إلى الرجل النسّاج . فمن كان هذا الإنسان ؟ ومن أين كان يحصل على هذه المعارف ، وبأيّ وسيلة ؟ لا نعلم شيئاً من ذلك .

ومنهج الأُستاذ القاضي مطابق لمنهج الأُستاذ الكبير المـلّا حسين قلي ، أي طريق معرفة النفس ، فكانوا لنفي الخواطر يأمرون في المرحلة الأُولى بالتوجّه إلى النفس ، وأن يُعيِّنَ السالك كلّ ليلة مقدار نصف ساعة أو أكثر لنفي الخواطر ، وفيها يتوجّه إلى نفسه ، شيئاً فشيئاً وعلى أثر التوجّه القويّ تزول عنه الخواطر ، وتحصل له معرفة النفس ، ليصل إلى الوطن المقصود إن شاء الله .

وأكثر الذين وُفِّقُوا لنفي الخواطر ، واستطاعوا أن يُـطَهِّروا أنفسهم ويصفّوها حتّى ظهر فيها سلطان المعرفة ، إنَّما كان ذلك منهم في إحدى حـالتين : الأُولى ، حـين تـلاوة القـرآن المـجيد ، والالتفات إلى القارئ الحقيقيّ للقرآن ، لينكشف لهـم أنَّ قـارئ القرآن هو الله جلّ جلاله .

الثانية ، عن طريق التوسّل بمقام أبي عبد الله عليه السلام ، لأنّ له عليه السلام عنايات عظيمة في رفع الحجب والموانع عن طريق سالكي طريق الله .

وبناء على ما ذكر فإنَّ لشيئين مهمّين ثقلاً كبيراً في تجلّي سلطان المعرفة : **الأوّل** ، المراقبة بجميع مراتبها . و **الثاني** ، التوجّه إلى النفس . فبالتوجّه إلى هذين الأمرين سوف يتّضح للسالك تدريجيّاً أنَّ الكثرة في هذا العالم تنبع من عين واحدة . وكلّ ما يتحقّق فيه هو من مصدر واحد ، وأنَّ أيّ موجود بقدر ما له من النور والجمال والبهاء يستقي من تلك العين المِعين ، وأنَّ ذلك المصدر العظيم يفيض على كلّ موجود بقدر سعة وجوده ـ التي هي قابليّاته الماهويّه - أنوار الوجود والجمال والعظمة . وبعبارة أُخرى أنَّ الفيض من جانب الفيّاض المطلق يفاض بشكل مطلق وبدون قيد وشرط أو حدّ ، وكلّ موجود يأخذ منه بقدر وسع ماهيّته .

نعم ؛ وتنكشف للسالك ـ نتيجة للمراقبة التامّة والاهتمام الشديد بها وعلى إثر التوجّه إلى النفس وبالتدريج ـ عوالم أربعة هي كالتالي :

العالَم الأوّل : توحيد الأفعال ، أي إدراك السالك في المرحلة الأُولى أنَّ كلّ ما تراه العين ويلفظه اللسان وتسمعه الأُذن وتقوم به اليد والرجل وسائر الأعضاء والجوارح ، كلّ ذلك يستند إلى نفسه ، وأنَّ النفس هي الفاعلة المحضة ، ثمّ يدرك أنَّ الأفعال التي تتحقّق في الخارج تستند إلى نفسه ، وأنَّ نفسه هي مصدر

جميع الأفعال في الخارج ، ثمّ يدرك أنَّ نفسه قائمة بذات الحقّ ، وأنـّها قبس من فيوضات الله ورحمته ، وبالتالي تعود جميع الأفعال في العالم الخارجيّ إلى ذاته المقدّسة .

العالَم الثاني : توحيد الصفات ، ويكون بعد العالم الأوّل . وفي هذا العالم لا يرى السالك من نفسه سمعاً أو بصراً ، وأنَّ حقيقة سمعه وبصره من الله تعالى ، وكذا كلّ ما يُرى في الموجودات الخارجيّة ـ من الصفات كالعلم والقدرة والحياة ـ يستند إليه تعالى .

العالَم الثالث : التوحيد في الأسماء ، ويأتي بعد العالم الثاني . وهو أن يدرك السالك قيام جميع الصفات بالذات الإلهيّة ، كأن يرى أنَّ العالم والقادر والحيّ هو الله المتعال ، فيدرك أنَّ علمه وقدرته وسمعه وبصره هو علم الله وقدرته وسمعه وبصره ، وأنَّ **الحيّ والقادر والعالم والسميع والبصير ـ في كلّ العوالم ـ** هو واحد فقط ، وهو الله جلَّ جلاله ، وكلّ موجود من **الموجودات** يحكي ـ بقدر سعة وجوده ـ عن ذلك العالِم والقادر والسميع والبصير والحيّ ، ويدلّ عليه .

العالَم الرابع : التوحيد في الذات ، وهو أعلى من العالَم الثالث ، وينكشف للسالك بواسطة التجلّيات الذاتيّة ، فيدرك فيه

أنَّ تلك الذات التي تستند إليها جميع الأفعال والصفات والأسماء هي ذات واحدة ، وأنـّها حقيقة واحدة ، تقوم بها جميع الحقائق ، فلا يعود للسالك توجّه إلى الاسم والصفة ، بل يكون مشهوده هو الذات فحسب ، وهذا حين يتخطّى السالك وجوده الخاصّ المستعار كلّيّاً فاقداً ذاته في ظلّ الفناء في الذات الإلهيّة المقدّسة ، حينها يحصل التجلّي الذاتيّ ، والمسمّى لضيق التعبير أحياناً بمقام الذات أو حقيقة الذات أو الأحديّة ، لأنَّ كلّ ما يُكتَب أو يقال عبارة عن أسماء، والذات الإلهيّة المقدّسة أرفع مقاماً من ذلك ، فلا يمكن لأيّ اسم أن يطالها أو يدرك مقامها ، بل هي أعلى من هذا العجز ، لأنَّ العجز هو في عين السلب والنفي إثبات حدّيّ ، والحقّ تعالى أعلى من الحدّ . فإذا دخل السالك إلى هذا المنزل فاقداً اسمه وذاته عندها لن يعرف نفسه أو أحداً آخر غير الله ، بل يرى الله في ذاته فحسب .

فالسالك يفقد في كلّ واحد من هذه العوالم الأربعة مقداراً من آثار وجوده الخاصّ ، حتّى يفقد تمام وجوده وإنّيّته .

ففي العالم الأوّل الذي يصل فيه إلى مقام الفناء في الفعل يفهم أنَّ الفعل لا يصدر منه ، بل من الله ، وهنا يفقد تمام آثاره الفعليّة .

وفي العالم الثاني عندما يصل إلى التجلّي الصفاتيّ يفهم أنَّ العلم والقدرة وسائر الصفات تختصّ وتنحصر بذات الحقّ سبحانه وتعالى ، وهنا يفقد صفاته ويضيّعها فلا يجدها بعد ذلك في ذاته .

وفي العالم الثالث عندما يحصل التجلّي الأسمائيّ يدرك أنَّ العالِم والقادر هو الله جلَّ جلاله ، وهنا يضيّع أسماءه ، فلا يجدها بعد ذلك فيه .

وفي العالم الرابع الذي هو التجلّي الذاتيّ يضيّع وجوده ويفقد ذاته فلا يجدها بعد ذلك أبداً ، فلا ذات سوى ذات الله المقدّسة .

هذه المرحلة من الشهود أي التجلّي الذاتيّ يعبّر عنها العارفون بـ «العنقاء» ، لأنَّ العنقاء موجود لا يمكن اصطياده . وهذه الصفات البحتة والوجود الصرف يعبّر عنه بـ «عالم العمى» و «الكنز المخفيّ» و «ذات مَا لَا اسمَ لَهُ ولَا رَسْمَ لَهُ» .

برو اين دام بر مرغ دگرنه

كه عنقا را بلند است آشيانه[1]

ما أجمل ما ينظمه حافظ الشيرازيّ عليه الرحمة في

١ـ وترجمته :

اذهب ضع الشراك لغيرها فالعنقاء في الأعالي عشّها

مثنويّاته مبيّناً هذا الأمر باستعاراته اللطيفة :

الا ای آهــــوی وحــشــــی کـجـایی

مـرا با تــوسـت چــنـدیـن آشــنـایی

دو تنها و دو سـرگـردان ، دوبـی کـس

دَد و دامـت کمین از پـیـش و از پس

بــیـا تــا حــال یکــدیـگـر بــدانــیـم

مــــراد هــم بــجــوییـم ارتــوانــیـم

چـنـیـنـم هــســـت یـاد از پــیـردانــا

فـراموشـــم نـشــد هـرگـز هــمـانـا

کــه روزی رهــروی در ســــرزمـیـنـی

به لطـفـش گفـت رنـدی ره نـشــیـنی

کـه ای سـالـک چـه در انـبـانـه داری

بـیـا دامــی بــنــه گـــر دانــــه داری[1]

١ـ يقول : «أين أنتِ أيّتها الظبية المستوحشة ؟ فلي بك معرفة قديمة. كلانا غريب وشريد ووحيد ، والوحوش والشراك حاصرتك من جهتين.

فتعالي لكي يشكو كلّ واحد منّا همّه إلى الآخر ، ونبحث عن مطلوبنا إذا أمكن ذلك . فلاأزال أذكر نصيحة لشيخ عارف لا أنساها أبداً ، إذ قال لي : إنَّ ماكثاً قال لمستطرق يضربه في الأرض : ما الذي يحتويه جرابك أيّها الساري ؟ أقم وانصب شركاً إن كان فيه حبّاً» .

جـــــوابـــــش دادكـاَرى دام دارم
ولـى سـيـمرغ مـىبـايـد شـكـارم
بگفتا چـون به دسـت آرى نشـانـش
كه او خـود بى نشـانسـت آشـيانـش
بگفتا گـرچـه اين امـرى محـال اسـت
ولـيـكـن نا امـيـدى هـم وبـال اسـت
نـكـرد آن هـمـدم ديـريـن مـدارا
مـسـلمـانـان مـسـلمـانـان خـدا را
مـگـر خـضـر مـبـارك پـى تـوانـد
كـه ايـن تـنـهـا بـدان تـنـهـا رسـانـد[1]

والمعروف أنَّ المكان الذي فيه عشّ العنقاء لا أثر له أصلاً ، فكيف يمكن صيدها ؟ و لا يمكن ذلك إلّا بلطف الرحمن الهادي الذي يقود التائهين في وادي المحبّة وعاشقي جماله

١ـ يقول : «فأجابه : أجل ؛ عندي شراك ولكن أروم صيد عنقاء. فقال: كيف السبيل إلى ذلك مع استحالة الوصول إلى عشّها؟! أجابه: مهما كان هذا مستحيلاً غير أنَّ اليأس أشدّ وطأة عَلَيَّ منه . فلم يستجب لي ذلك الجليس القديم، وا غوثاه يا مسلمون ! أفهل يمكن للخضر عليه السلام أن يربط هذه الأجساد بذلك الأوحد ؟» .

السرمديّ إلى وادي التوحيد والفناء . نسألك اللهمَّ بحقّ السائرين في وادي المحبّة وحاملي لواء الحمد والمعرفة محمّد المصطفى وعليّ المرتضى والأحد عشر كوكبا من أبناء فاطمة البتول الزهراء عليهم سلام الله الملك المتعال وَفِّقِ اللَهُمَّ جَمِيعَ المُحِبِّينَ وَإيَّانا لِكُلِّ مَا يُرْضِيكَ وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ .

بحمد الله ومنّه ، تمّت هذه الرسالة الشريفة الموسومة بـ «**رسالة لبّ اللباب في سير وسلوك أُولي الألباب**» بقلم الفقير الحقير في ليلة الثامن من شهر رمضان المبارك ، سنة تسع وستّين وثلاثمائة وألف للهجرة . **وَلَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى والآخِرَةِ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ .**

وأَنا الحقير الفقير السيّد محمّد الحسين الحسينيّ الطهرانيّ في بلدة قم الطيّبة .